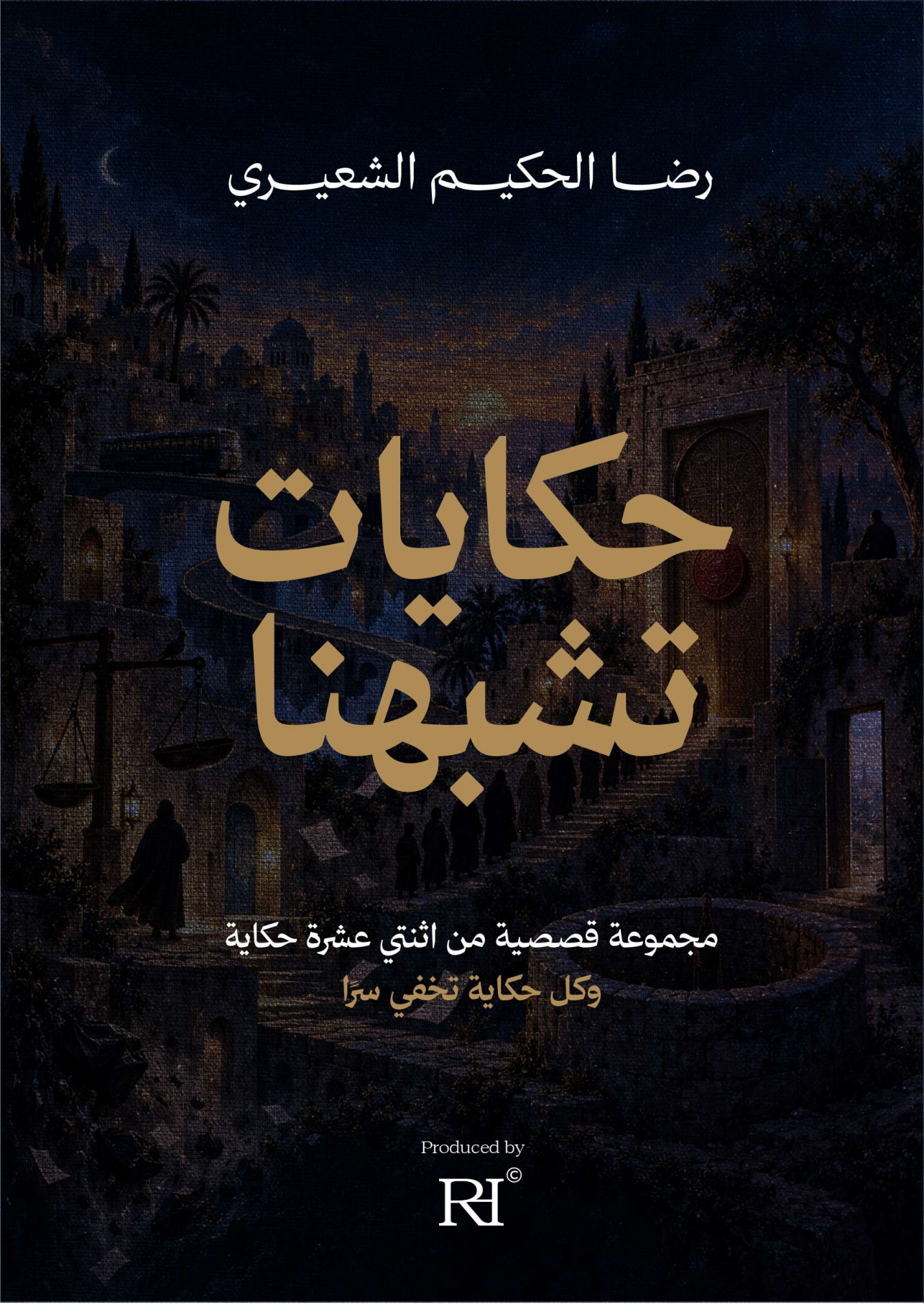
رضا الحكيم الشعيري
حكايات تشبهنا
مجموعة قصصية من اثنتي عشرة حكاية
وكل حكاية تخفي سرًا
Produced by
RH©

حكايات تشبهنا

مجموعة قصصية

رضا الحكيم الشعيري



الإهداء

إلى أبنائي...

كي يكبروا في وطن لا يحتاج فيه الإنسان إلى حكاية خيالية ليصف ما يعيشه.

إلى الذين أرهقتهم الطوابير، وأثقلتهم الأسعار، وأغلقت الأبواب في وجوههم، ومع ذلك لم يفقدوا قدرتهم على الحلم.

إلى الذين يسخرون من أوجاعهم كي لا تهزمهم، ويواصلون السير رغم أن الطريق لا يكون دائما في الاتجاه الصحيح.

إلى كل من وجد في إحدى هذه الحكايات شيئا من مدينته، أو ملامح من حياته، أو سؤالا ظل طويلا يخشى أن يطرحه.

إليكم جميعا...

لأن هذه الحكايات تشبهكم بقدر ما تشبهني.



مقدمة

المدن التي ستدخلونها في هذا الكتاب لا تظهر على الخرائط، ولا تصل إليها القطارات، ولا يعرف أحد على وجه الدقة أين تبدأ حدودها وأين تنتهي. ومع ذلك، قد تشعرون منذ الصفحات الأولى أنكم مررتم بشوارعها من قبل، وانتظرتم في طوابيرها، وطرقتم أبوابها، وربما دفعتم يوما ثمن العيش فيها.

في مدينة منها، تصبح الأوراق أكثر أهمية من أصحابها، ويقضي الناس أعمارهم وهم ينتظرون ختما أحمر. وفي أخرى، تتكدس الشهادات فوق طاولات المقاهي، بينما تعبر الوظائف من باب لا يراه إلا أبناء المحظوظين. وهناك سوق تميل موازينه كلما اقترب منها الفقراء، وحافلة تصل دائما إلى الأمس، ومدرسة تخشى النوافذ حتى لا يدخل إليها الضوء.

ستجدون أيضا غرفة تلتهم نصف الراتب قبل أن يسكنها صاحبها، وطبيبا أنهكه انتظار المرضى أكثر مما أنهكهم المرض، وبائعا يشيد الجسور بالكلمات ثم يتركها معلقة في الهواء. وستمرون بقرية نسيها بئرها، ومدينة لا يفتح فيها الباب الصحيح بالمفتاح، وأخرى أصبح السير فيها عكس الاتجاه دليلا على المهارة، بينما يتهم الملتزم بالقانون بالضعف وقلة الخبرة.

لم أكتب هذه الحكايات لأصف مدينة بعينها، أو لأدين شخصا بعينه، بل لأضع واقعنا أمام مرآة الخيال. فالخيال، حين يبالغ، لا يكذب دائما؛ بل قد يقترب من الحقيقة أكثر مما نجرؤ نحن على الاقتراب منها.

السخرية في هذه الصفحات ليست ضحكا على آلام الناس، بل محاولة للنجاة منها. وليست الشخصيات أبطالا خارقين؛ إنهم أناس عاديون يفعلون أخطر ما يمكن أن يفعله الإنسان في مدينة اعتادت الخطأ: يتوقفون لحظة، ينظرون حولهم، ثم يسألون: لماذا؟

قد لا تغير الحكاية مدينة، ولا تفتح بابا مغلقا، ولا تعدل ميزانا مائلا، لكنها تستطيع أن تمنعنا من الاعتياد. تستطيع أن تذكرنا بأن الخطأ لا يصبح صوابا لأن الجميع يفعله، وأن الطريق المعاكس يظل معاكسا مهما كثر السائرون فيه.

وإذا بدت لكم هذه المدن مألوفة أكثر مما ينبغي، فلا تبحثوا عنها بعيدا... فربما كان أقصر طريق إليها يبدأ من نافذة بيوتنا.



الفهرس

مدينة الطوابير 1

مقهى الشهادات 15

السوق ذو الميزان المائل 25

الحافلة التي كانت تصل أمس 43

الحي الذي ابتلعته أكياسه 57

مدرسة بلا نوافذ 71

غرفة تأكل نصف الراتب 83

طبيب القرية الذي مرض من الانتظار 95

بائع الجسور 107

البئر الذي نسي القرية 119

البابان 131

المدينة التي تسير بالمقلوب 143



رضـا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا

مدينة الطوابير

حين تحتاج إلى وثيقة ... لتطلب وثيقة



Produced by

RI©

وراء آخر خط في الخريطة، بعد المكان الذي تنتهي عنده أسماء البلدان، كان يوجد بلد غريب يدعى «بلد الورق»

في ذلك البلد، لم يكن الإنسان يعتبر مولودا لمجرد أنه جاء إلى الدنيا؛ كان عليه أولا أن يحمل ورقة مختومة تثبت أنه ولد. وإذا أراد أن يدرس احتاج إلى ورقة، وإذا بحث عن عمل طلبت منه ورقة تثبت أنه لا يعمل، وإذا مرض لم يفتح له باب المستشفى حتى يقدم ملفا يؤكد أنه مريض.

أما الذين يموتون، فكانوا يظلون أحياء في سجلات المدينة إلى أن تحضر أسرهم وثيقة رسمية تثبت وفاتهم.

وكانت عاصمة بلد الورق مدينة اسمها «مدينة الطوابير»

في وسطها، علقت على جدار البلدية ساعة ضخمة يراها الناس من جميع الشوارع. لكنها توقفت منذ سنوات عند الحادية عشرة وتسع وخمسين دقيقة.

جاء صانع ساعات لإصلاحها، ووضع سلمه على الجدار، لكن مسؤولا خرج من البلدية وسأله:

- ماذا تفعل؟

- سأصلح الساعة، فقد توقف الوقت.

أجابه المسؤول:

- قبل إصلاحها، يجب أن تحضر ورقة تثبت أن الوقت متوقف.

رفع صانع الساعات رأسه نحو العقربين الساكنين وقال:

- ألا تكفي الساعة نفسها دليلا؟

قال المسؤول بصرامة:

- ما تراه بعينيك لا قيمة له أمام الإدارة. نحن نحتاج إلى وثيقة مختومة.

ومنذ ذلك اليوم، بقيت الساعة عند 11:59، لأن أحدا لم يعرف من أين يمكن استخراج شهادة تثبت أن الوقت قد توقف.

غير بعيد عن الساعة، كان يوجد بيت صغير يعيش فيه رجل اسمه سالم مع ابنته مريم.

في ذلك الصباح، استيقظت مريم قبل أبيها. كان اليوم أول يوم ستذهب فيه إلى المدرسة، فارتدت مئزرها الجديد، وصففت شعرها بعناية، ثم وقفت أمام المرآة تتأمل نفسها.

استدارت نحو سالم وسألته:

- هل أبدو مثل التلميذات يا أبي؟

ابتسم وهو يصلح ياقة مئزرها وقال:

- بل تبدين مثل معلمة صغيرة.

حملت مريم محفظتها، وفتحتها مرات عديدة لتتأكد من وجود دفاترها وأقلامها. ثم وقفت عند الباب تنتظر أن يمسك أبوها بيدها ويأخذها إلى المدرسة.

لكن سالم كان يضع بعض الوثائق داخل ملف أزرق.

قال لها:

- بقيت ورقة واحدة فقط، شهادة السكنى. سأذهب إلى الإدارة وأعود قبل الظهر لآخذك إلى المدرسة.

سألته وهي تنظر إلى الساعة:

- قبل الثانية عشرة؟

قبل سالم جبينها وقال:

- قبل الثانية عشرة بالتأكيد. إنها مجرد ورقة.

خرج سالم مسرعا، بينما عادت مريم إلى المرآة تصلح شعرها وتنتظر.

كان مبنى الإدارة ضخما، له أبواب كثيرة، لكنها كلها مغلقة باستثناء باب صغير لا يتسع إلا لشخص واحد. وفوق المدخل علقت لافتة كبيرة كتب عليها: «الإدارة في خدمة المواطن»، غير أن كلمة «المواطن» بهت لونها حتى كادت تختفي.

أمام الباب، وجد سالم طابورا طويلا يقطع الساحة ويلتف حول المبنى.

وقف في آخره وسأل رجلا عجوزا أمامه:

- هل هذا طابور شهادة السكنى؟

أجابه العجوز:

- لا أعرف يا بني. أنا أقف هنا لأسأل عن مكان طابور الاستفسارات.

- وأين طابور الاستفسارات؟

رفع العجوز كتفيه وقال:

- لو كنت أعرف، لما وقفت هنا لأسأل عنه. في الحقيقة، لا أحد يعرف لأي شيء هذا الطابور، لكن الجميع يخافون أن يغادروه فيكتشفوا أنه الطابور الصحيح.

بقي سالم واقفا. مرت ساعة، ثم ساعة أخرى، ولم يتحرك الطابور إلا خطوات قليلة.

وحين اقترب دوره، أغلق الموظف النافذة وعلق لافتة كتب عليها:

«استراحة قصير»

ثم خرج إلى المقهى المقابل ليشرب الشاي.

انتظر الناس تحت الشمس، وظلت كلمة «قصيرة» معلقة أمامهم وقتا طويلا. وفي مدينة الطوابير، كانت مدة الاستراحة تقاس ببرودة كأس الشاي، لا بعقارب الساعة.

عاد الموظف أخيرا، وفتح الشباك من دون أن يعتذر. وعندما جاء دور سالم، وضع أمامه بطاقته وقال:

- أريد شهادة السكنى لتسجيل ابنتي في المدرسة.

سأله الموظف:

- ماذا لديك لإثبات أنك تسكن في العنوان المذكور؟



قدم له سالم فاتورة الماء.

نظر إليها الموظف وقال:

- هذه تثبت أن الماء يصل إلى المنزل، ولا تثبت أنك تسكن فيه.

قدم له عقد الكراء.

قال الموظف:

- هذا يثبت أن صاحب المنزل أجره لك، لكنه لا يثبت أنك دخلت إليه.

تعجب سالم وسأله:

- وما الوثيقة التي تثبت أنني أسكن في بيتي؟

أجابه الموظف:

- شهادة السكنى القديمة.

فتح سالم فمه من الدهشة وقال:

- لو كانت لدي شهادة السكنى، فلماذا سأطلبها منك؟

قال الموظف:

- نحتاج إلى الشهادة القديمة حتى نسلمك الجديدة.

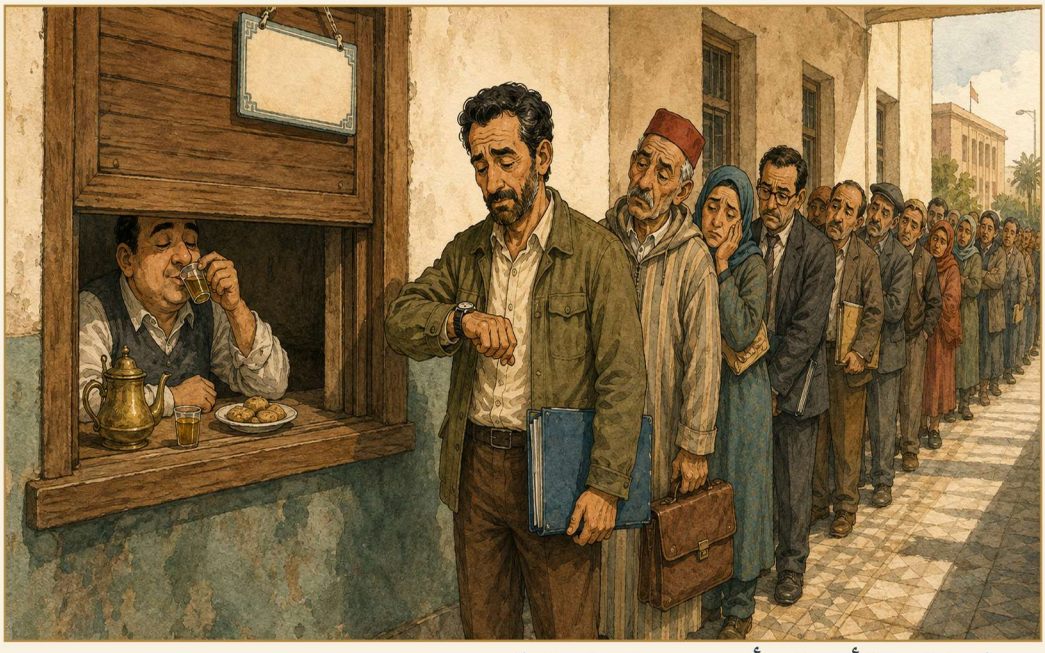

- لكنها المرة الأولى التي أستخرج فيها شهادة السكنى.

هز الموظف رأسه وقال:

- في هذه الحالة، يجب أن تحضر وثيقة تثبت أنه لم يسبق لك استخراج شهادة السكنى.

- ومن أين أحصل عليها؟

أشار الموظف إلى شباك في آخر الرواق:

- من شباك الشهادات التي تثبت عدم الحصول على الشهادات.

حمل سالم ملفه وتوجه إلى الشباك الآخر. فوجد عشرات الأشخاص يفترشون الأرض، بعضهم أحضر طعامه، وبعضهم وضع معطفه تحت رأسه ونام، وكأنهم لا ينتظرون دورهم بل يقيمون هناك.

جلس سالم إلى جانب رجل عجوز، وسأله:

- منذ متى وأنت تنتظر؟

أجابه العجوز:

- منذ عشر سنوات.

ظن سالم أنه يمزح، فسأله:

- عشر سنوات من أجل أي وثيقة؟

قال العجوز:

- شهادة الحياة.

- ولماذا لم تحصل عليها حتى الآن؟

تنهد العجوز وقال:

- في كل مرة يقول لي الموظف: أحضر ما يثبت أنك ما زلت حيا.

ضحك جميع الواقفين، إلا العجوز.

ظل ينظر أمامه بوجه حزين، لأنه كان الوحيد بينهم الذي يعرف أن ما قاله حقيقة، وليس نكتة.

انتقل سالم بعد ذلك من شباك إلى آخر.

في الشباك الأول طلبوا منه نسخة من بطاقته، وفي الثاني طلبوا نسخة مصادقا عليها من النسخة، وفي الثالث طلبوا الأصل للتأكد من أن النسخة المصادق عليها نسخت عن أصل حقيقي.

كانت الساعة تقترب من الظهر.

وفي البيت، جلست مريم قرب النافذة تراقب الأطفال وهم يسيرون نحو المدرسة. كانت تسمع ضحكاتهم، وترى محافظهم الملونة تتمايل فوق ظهورهم.

وضعت محفظتها بجانبها، وظلت تنظر إلى أول الزقاق، تنتظر ظهور أبيها.

أما سالم، فكان يركض من شباك إلى شباك ومن طابق إلى آخر. كلما جمع ورقة، ظهرت ورقة جديدة، حتى صار الملف الأزرق منتفخا كوسادة.

وفي أحد الطوابير، كان رجل ينتظر منذ الصباح لتصحيح خطأ في اسمه. وعندما وصل إلى الموظف، طلب منه وثيقة مكتوبا فيها اسمه الصحيح.

قال الرجل:

- لو كانت لدي وثيقة تحمل الاسم الصحيح، لما جئت لتصحيح الاسم الخطأ.

أجابه الموظف:

- لا يمكننا تصحيح الخطأ قبل أن تثبت لنا أنه خطأ.

وفي طابور آخر، كانت امرأة تريد تقديم شكاية بسبب طول الانتظار. وعندما وصلت إلى شباك الشكايات، سألها الموظف عن رقم دورها في طابور الشكايات.

قالت:

- لا يوجد طابور للشكايات.

فأجابها:

- إذن عليك أولا تقديم شكاية تطلب فيها إنشاء طابور للشكايات.

أما شباك الطوابع، فقد كان مغلقا، وعلقت عليه ورقة تقول:

«الموظف غائب لاستخراج شهادة تثبت أنه موظف في هذا الشباك»

ومع كل وثيقة جديدة، كان سالم يحتاج إلى نسخ إضافية.

وبينما كان سالم يتنقل بين مكتب وآخر، سمع تصفيقا وضجيجا في ساحة الإدارة. خرج مسؤول كبير إلى الشرفة، تحيط به مجموعة من الموظفين، ورفع يده طالبا من المواطنين الصمت.

قال بصوت احتفالي:

- أيها المواطنون، أحمل إليكم خبرا سارا! قريبا ستصبح جميع خدمات الإدارة رقمية، وستنتهي معاناتكم مع الأوراق والطوابير!

تهللت وجوه الواقفين، وصفق بعضهم فرحا. ظن سالم أن أبواب النجاة قد فتحت أخيرا.

تابع المسؤول:

- للاستفادة من الخدمات الرقمية، ما عليكم سوى كتابة طلب ورقي، وإرفاقه بشهادة تثبت أنكم تعرفون استعمال الإنترنت.

توقفت الأيدي عن التصفيق.

وأضاف المسؤول:

- بعد قبول طلبكم، يمكنكم الدخول إلى الموقع الإلكتروني، وملء الاستمارة، ثم طباعتها في ثلاث نسخ والحضور بها شخصيا إلى الموظف المختص، حتى يضع عليها الطابع والختم الأحمر.

رفع رجل من وسط الطابور يده وسأل:

- وإذا كنا سنطبع الطلب ونعود به إلى الإدارة، فما الذي أصبح رقميا؟

ابتسم المسؤول وقال:

- الطابور.

ثم دخل إلى مكتبه، بينما أخذ المواطنون يبحثون عن الشباك الذي يمنح شهادة معرفة استعمال الإنترنت.

أما سالم، فحمل ملفه وانتقل إلى طابور جديد، بعد أن اكتشف أن الإدارة في بلد الورق تستطيع تحويل الحاسوب نفسه إلى آلة لإنتاج المزيد من الأوراق.



أمام الإدارة كان يوجد دكان صغير لتصوير الأوراق. بدأ صاحبه حياته بآلة نسخ قديمة، لكنه أصبح مع مرور السنوات أغنى رجل في المدينة. اشترى منازل وسيارات، وبنى طابقين فوق دكانه، لأن أي ورقة تدخل الإدارة كانت تخرج منها وقد أنجبت عشر نسخ.

كان صاحب الدكان يسأل كل داخل:

- خمس نسخ؟

فيجيبه المواطن:

- اجعلها عشرا... ربما يطلبون أكثر.

وعندما جاء دور سالم، وضع وثيقته أمامه.

سأله صاحب الدكان:

- عشر نسخ؟

قال سالم:

- اجعلها عشرين. لقد بدأت أفهم كيف تسير الأمور في هذه المدينة.

بعد ساعات من التنقل بين المكاتب، حصل سالم على الوثيقة التي تثبت أنه لم يسبق له الحصول على شهادة السكنى، فعاد إلى الشباك الأول.



وقبل أن يصل دوره، توقفت أمام الإدارة سيارة سوداء فاخرة. نزل منها رجل يرتدي بدلة أنيقة وساعة لامعة، ودخل من باب خلفي لم يلاحظه سالم من قبل.

بعد ثوان، خرج الرجل يحمل شهادة السكنى، ركب سيارته وانصرف.

نظر سالم إلى الطابور الذي أمضى فيه يومه، ثم سأل العجوز الواقف بجواره:

- ما اسم هذه الخدمة السريعة؟

أجابه العجوز:

- هذه ليست خدمة سريعة يا بني... هذه خدمة المعرفة.

وصل سالم أخيرا إلى الموظف، ووضع أمامه الوثائق والنسخ والطوابع.

راجعها الموظف واحدة واحدة، ثم أرسلها إلى مكتب آخر لوضع الختم. ومن ذلك المكتب انتقلت إلى مكتب ثان للمصادقة على الختم، ثم إلى مكتب ثالث للتأكد من أن الختم وضع في المكان الصحيح.

وكل موظف كان يضيف توقيعا أو طابعا جديدا، حتى امتلأت شهادة السكنى بالأختام الحمراء والزرقاء والسوداء. اختفى اسم سالم، وضاع عنوانه بين التوقيعات، ولم يعد ممكنا قراءة فحوى الوثيقة.

لكن الموظف سلمها إليه بفخر وقال:

- الآن أصبحت رسمية.

خرج سالم من الإدارة راكضا. مر تحت ساعة المدينة، فوجدها ما تزال تشير إلى 11:59، فقال في نفسه:

- ربما لم أتأخر كثيرا.

توجه مباشرة إلى المدرسة، فوجد الحارس يغلق الباب الحديدي.

صاح سالم:

- انتظر! جئت لتسجيل ابنتي.

أجابه الحارس:

- المدرسة تغلق أبوابها في الرابعة.

رفع سالم رأسه نحو الساعة المعلقة فوق باب المدرسة، فوجدها تشير إلى الرابعة وخمس دقائق.

قال متوسلا:

- خمس دقائق ليست كثيرة.

أجابه الحارس:

- قد لا تكون كثيرة في حياتك، لكنها كثيرة في دفتر المواعيد.

رفع سالم شهادة السكنى وقال:

- قضيت يوما كاملا لاستخراج هذه الورقة!

نظر الحارس إلى الوثيقة التي غطتها الطوابع حتى اختفى مضمونها، ثم قال:

- عد في العام القادم.

وأغلق الباب.

عاد سالم إلى البيت بخطوات ثقيلة، فوجد مريم ما تزال ترتدي مئزرها، جالسة أمام المرآة ومحفظتها بجانبها. كانت قد قضت اليوم كله تنتظر صوت مفتاحه عند الباب.

ما إن رأته حتى وقفت وسألته:

- هل سنذهب الآن إلى المدرسة؟

لم يستطع سالم الإجابة.

نظرت مريم إلى النافذة، فرأت الشمس توشك على الغروب.

قالت:

- وعدتني أن تعود قبل الظهر.

جلس سالم أمامها، ووضع شهادة السكنى على الطاولة وقال:

- حاولت يا مريم، لكن الورقة كانت تحتاج إلى أوراق، وكل ورقة كانت تقودني إلى طابور جديد.

سألته:

- وهل أحضرتها؟

- نعم.

- إذن لماذا لم أدخل المدرسة؟

خفض سالم رأسه وقال:

- لأنني حصلت على الورقة... بعدما أغلق الباب.

تأملت مريم الشهادة المغطاة بالطوابع وسألته:

- وأين اسمنا؟ وأين عنوان بيتنا؟

بحث سالم بين الأختام، لكنه لم يجد شيئا يمكن قراءته.

قال:

- موجودان في مكان ما تحت كل هذا الحبر.

سكتت مريم قليلا، ثم سألت:

- هل الورقة أهم من المدرسة يا أبي؟

نظر سالم إليها، ولم يجد في ملفه كله ورقة تساعده على الإجابة.

في تلك الليلة، هبت على بلد الورق عاصفة لم يشهد السكان مثلها من قبل.

دخلت الرياح من نوافذ الإدارات، وفتحت الخزانات، وانتزعت الملفات من الرفوف. تطايرت شهادات الميلاد فوق الأسطح، واختلطت عقود الزواج بوثائق الطلاق، وسقطت شهادات الحياة إلى جانب شهادات الوفاة.

ثم انهمر المطر.

ابتلت الأوراق، وسال الحبر، وذابت التوقيعات، وتحولت الأختام إلى بقع حمراء وزرقاء لا تدل على شيء.

وفي الصباح، خرج سكان المدينة يبحثون عن وثائقهم.

كان كل واحد يلتقط ورقة من الوحل، يقرأ ما بقي منها، ثم يكتشف أنها تخص شخصا آخر. لم يعد أحد يعرف أي ورقة تثبت ميلاده، وأي ورقة تثبت سكنه، وأي ملف يحمل اسمه.

أما الإدارة، فأغلقت أبوابها وعلقت لافتة تقول:



«مغلق بسبب ضياع الأرشيف وطلبات المواطنين»

قضى الموظفون النهار يبحثون عن سجلاتهم، بينما كان المواطنون يبحثون عن الطلبات التي قضوا سنوات في إعدادها. وحين جاء أحدهم ليسأل متى ستفتح الإدارة، طلب منه الحارس وثيقة تثبت أن لديه معاملة ضائعة في الداخل.

خرج سالم مع مريم يتأملان المدينة التي غرقت في أوراقها.

وعند حافة الوادي، لمح سالم شهادة السكنى عالقة بين حجرين. التقطها، فوجدها مبللة وقد مسحت منها معظم الأختام. تحولت الوثيقة التي أضاع من أجلها يوم مريم الأول إلى قطعة ورق لا تعني شيئا.

جلس قرب الماء، وطوى الشهادة من الوسط، ثم ثنى طرفيها بعناية حتى صنع منها قاربا صغيرا.

وضعه فوق الوادي، فحمله التيار وبدأ يبتعد.

جلست مريم إلى جانب أبيها، وظلا ينظران إلى القارب وهو يغادر مدينة الطوابير.

سألته:

- إلى أين يذهب يا أبي؟

أجاب سالم:

- إلى بلد لا يحتاج فيه الإنسان إلى ورقة تثبت أين يسكن، ولا يحتاج الطفل إلى شهادة ليدخل المدرسة، ولا يحتاج المريض إلى ملف حتى يفتح له باب المستشفى.

سألته مريم:

- وهل يوجد ذلك البلد وراء الخريطة؟



ابتسم سالم وقال:

- ربما... فالأماكن الجميلة لا تظهر دائما على الخرائط.

تابعا القارب حتى صار نقطة بيضاء صغيرة، ثم اختفى عند منعطف الوادي.

وفي وسط المدينة، بقيت الساعة متوقفة عند الحادية عشرة وتسع وخمسين دقيقة.

لكن القارب وحده كان يعرف أن الوقت لم يتوقف... وأن يوما من طفولة مريم قد مضى.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا

مقهى الشهادات

حين يصبح الانتظار مهنة

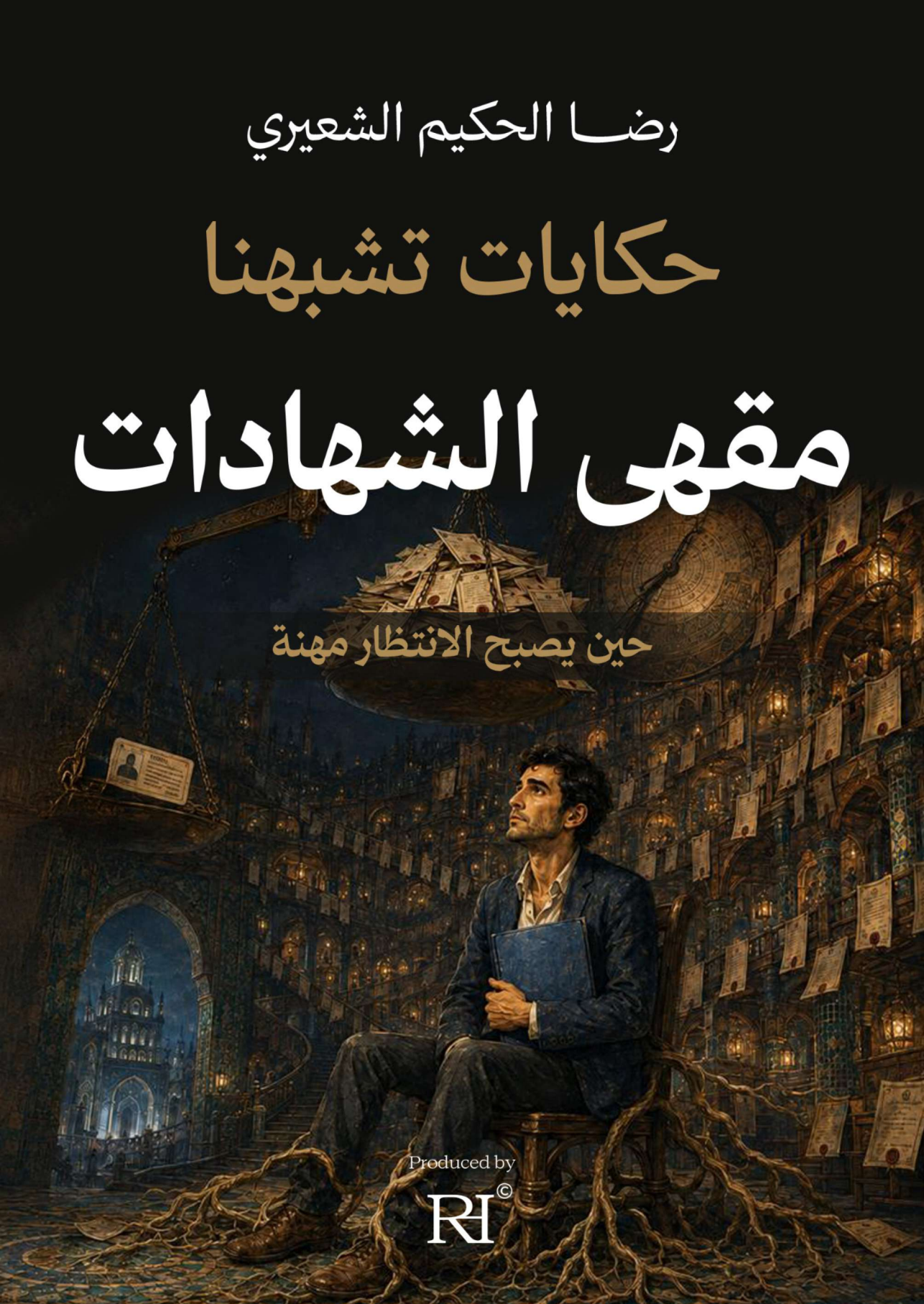

Produced by

RH©

على بعد سبعة أختام وثلاثة طوابير من «مدينة الطوابير»، كانت تقع مدينة كبيرة تشتهر بجامعة عجيبة تسمى

«جامعة الأقواس السبعة».

في هذه الجامعة، لم تكن الشهادات مجرد أوراق صامتة؛ بل كانت رقوقا مذهبة تستيقظ ليلا وتهمس لأصحابها عن المستقبل. وفي يوم التخرج، كان كبير الأساتذة يقف فوق أعلى قوس، ويرفع شهادة أمام الخريجين قائلا:



- لا تنظروا إليها بوصفها ورقة... إنها جناح سيحمل كل واحد منكم إلى المكان الذي يستحقه.

وكان الخريجون يصدقونه، فتلمع شهاداتهم بين أيديهم وتتحرك أطرافها كأنها أجنحة تستعد للطيران.

من بين هؤلاء كان «ياسين»، شابا أمضى سنوات طويلة في الدراسة حتى حصل على شهادة مختومة بالختم الأحمر، ومكتوب في أسفلها أنه تخرج بميزة حسنة جدا. عاد بها إلى بيته، فوضعتها أمه وسط صينية فضية، وأعد والده الشاي احتفالا، وظل الجيران يتأملون الختم الأحمر وكأنه مفتاح كنز.

في تلك الليلة، استيقظ ياسين على صوت خافت. كانت الشهادة تهمس من داخل إطارها:

- انهض يا ياسين... حان وقت المستقبل.

حملها وانطلق خلفها. كانت تطير قليلا ثم تنتظره، حتى قادته إلى بناء هائل يسمى «قصر المهن». كان للقصر آلاف النوافذ، لكنه لا يملك إلا بابا واحدا، يقف أمامه حارس يحمل سلسلة طويلة من المفاتيح.

قدم ياسين شهادته، فتأملها الحارس بإعجاب، ثم قال:

- شهادة جميلة، لكن ينقصك «خاتم الخبرة».

توجه ياسين إلى «دار الخبرة»، فوجد موظفا عجوزا يغمس ريشته في محبرة لا تجف. طلب منه الخاتم، فسأله الموظف:



- هل سبق لك أن عملت؟

- لا، ولهذا أحتاج إلى الخاتم حتى أحصل على عمل.

أعاد الموظف الريشة إلى مكانها وقال:

- نحن لا نمنح خاتم الخبرة إلا لمن يملك خبرة سابقة.

- وكيف أحصل على الخبرة من دون عمل؟

فتح الموظف كتابا ضخما وراح يقلب صفحاته، ثم قال:

- هذا السؤال غير موجود في الكتاب.

خرج ياسين يبحث عن طريق آخر، لكن شوارع المدينة كانت مسحورة؛ فكل طريق يسلكه كان يلتف حول نفسه ويعيده إلى المكان ذاته: مقهى صغير مقابل قصر المهن، يحمل اسم «مقهى الشهادات».

كان المقهى أكبر من الخارج بكثير. كلما دخل إليه خريج جديد، نبتت في داخله طاولة وكرسي. وكانت جدرانه مغطاة بآلاف الشهادات التي تركها أصحابها مقابل ديون الشاي والقهوة.

أصحاب الإجازات يجلسون قرب الباب، وحملة الماستر قرب النوافذ، أما أصحاب الدكتوراه فكانوا في الطابق الأعلى، لأن سنوات انتظارهم أطول.



ساعة المقهى لا تحسب الساعات، بل تحسب السنوات. وإبريق الشاي لا ينفد أبدا، بينما كان دفتر الديون يفتح نفسه ويكتب أسماء الزبائن من دون أن يلمسه أحد.

رحب به صاحب المقهى «العم الطيب»، وأشار إلى كرسي فارغ:

- اجلس هنا حتى يفتح قصر المهن أبوابه.

وما إن جلس ياسين حتى خرجت من أرجل الكرسي جذور صغيرة، بدأت تتسلل ببطء داخل أرضية المقهى.

مرت الأيام ثم الشهور، كان ياسين يقدم طلبا كل صباح، ويعود في المساء ليجد جذور كرسيه قد ازدادت قليلا.

أما شهادته، فبدأ بريقها يضعف، وصار صوتها أكثر حزنا.

وفي أحد الأيام، سمع نفير عظيم في المدينة. اهتزت نوافذ المقهى، واستيقظت الشهادات المعلقة على الجدران وبدأت ترفرف كطيور مذعورة.

ظهر منادي قصر المهن فوق حصان خشبي وأعلن:

- بشرى لأهل المدينة! لقد فتح منصب واحد في قصر المهن!

قفز آلاف الخريجين من مقاعدهم، واقتلع بعضهم جذور كراسيهم بالقوة. تابع المنادي قراءة الشروط:



- يجب ألا يتجاوز عمر المرشح خمسا وعشرين سنة، وأن يمتلك عشر سنوات من الخبرة، ويتقن لغات البشر والطيور، ويجيد عد الغيوم، وأن يحضر معه سلما خاصا لأن مقر العمل يوجد فوق سحابة.

تقدم آلاف الشباب للمباراة. حملوا شهاداتهم وملفاتهم، وعبروا ممرات طويلة من الأختام والاختبارات. طلب منهم حفظ أسماء الرياح، ووزن الظلال، وعد حبات المطر قبل سقوطها. كان ياسين من القلائل الذين وصلوا إلى المرحلة الأخيرة.

وفي اللحظة التي استعدت فيها لجنة الحكم لإعلان النتائج، دخل شاب أنيق متأخرا. لم يكن يحمل شهادة ولا ملفا، ولم يشارك في أي اختبار. كان يمشي خلفه خادم يحمل وسادة حمراء صغيرة، فوقها بطاقة واحدة كتب عليها:

«ابن صاحب الختم الأكبر»

سأله رئيس اللجنة:

- أين شهادتك؟

أجاب الشاب:

- لا أعرف أين وضعتها.

- وما خبرتك؟

- ليست لدي خبرة.

- وهل تجيد عد الغيوم؟

رفع الشاب رأسه إلى السماء وقال:

- لم أحاول من قبل.

همس أحد الحكام في أذن رئيس اللجنة باسم والده، فوقف أعضاء اللجنة جميعا وعدلوا ملابسهم. ثم أحضروا «ميزان الاستحقاق» ووضعوا في كفة منه شهادات آلاف المتبارين، وفي الكفة الأخرى وضع الشاب بطاقة اسم أبيه.

في اللحظة التي لامست فيها البطاقة الميزان، هوت كفتها إلى الأرض، وارتفعت جميع الشهادات في الهواء كأنها لا تزن شيئا.

أعلن رئيس اللجنة:

- لقد فاز بالمنصب صاحب البطاقة!

احتج ياسين:

- لكنه لم يجب عن سؤال واحد، ولا يملك شهادة ولا خبرة!

ابتسم رئيس اللجنة وأشار إلى الميزان:

- نحن لا نتدخل في النتائج، الميزان أثبت أن اسم أبيه أثقل من شهاداتكم جميعا.

عاد ياسين إلى المقهى، وتبعته آلاف الشهادات المكسورة، لم تعد تطير كما كانت يوم التخرج، بل كانت تزحف فوق الأرض وقد اختلط غبار الطريق بحبر أختامها.

جلس ياسين فوق كرسيه، فعادت الجذور والتفت حول ساقيه بقوة أكبر. حاول اقتلاعها، لكنه كان متعبا من الامتحانات، ومن الطرق التي تعيده دائما إلى المكان نفسه، ومن الأبواب التي تسأله عن الخبرة قبل أن تسمح له باكتسابها.

ولتهدئة غضب الخريجين، ظهر «وزير المستقبل» في شرفة القصر وأعلن:

- وجدنا الحل النهائي لمشكلة الانتظار!

سكتت المدينة ورفعت الشهادات رؤوسها.

- سنفتح «المعهد العالي للانتظار»، حيث يدرس العاطلون ثلاث سنوات إضافية، ويحصلون بعدها على شهادة تثبت أنهم مؤهلون للبحث عن عمل.

قرعت الطبول، وأطلقت الأبواق، ونشرت صحف المدينة صور الوزير وهو يقص شريطا ذهبيا أمام المعهد الجديد. وفي الليلة نفسها، نبت طابق آخر فوق مقهى الشهادات، وظهرت فيه مئات الطاولات والكراسي استعدادا للفوج القادم.



مرت سنة، ثم ثانية، ثم خامسة.

كانت ساعة المقهى تلتهم أعمار الجالسين ببطء. ابيض شعر بعضهم، وانحنت ظهور آخرين، بينما بقيت صورهم داخل الشهادات شابة، تبتسم بثقة كما كانت يوم التخرج.

بعضهم باع كتبه ليؤدي ديون الشاي. وبعضهم غادر نحو «بحر الغياب»، فلم تعد منه إلا شهادته طافية فوق الماء. وبعضهم ظل يجلس حتى نسي المهنة التي درسها، ونسي السبب الذي جاء من أجله، ولم يعد يتذكر من أحلامه إلا أنه كان يملك أحلاما ذات يوم.

وفي الأحياء البعيدة، بقيت الأمهات يضعن كل مساء كؤوس الشاي فوق الموائد وينتظرن أبناء خرجوا ذات صباح لتقديم طلب عمل. كان الشاي يبرد، وتكبر الأمهات، بينما يواصل المقهى ابتلاع أبنائهن عاما بعد عام.

ذات صباح، اهتزت شهادة ياسين فوق الجدار وهمست:

- استيقظ... هناك إعلان جديد.

رفع ياسين رأسه بصعوبة وسأل:

- عن أي منصب؟

- أستاذ في «المعهد العالي للانتظار»، لتدريس مادة الصبر للخريجين الجدد. يشترط أن يملك المرشح خمس سنوات من الخبرة في انتظار الوظيفة.



لمعت عينا ياسين لأول مرة منذ سنوات وقال:

- أخيرا... وجدت وظيفة أملك خبرتها.

وصل رسول من قصر المهن يحمل رسالة القبول. فتحها ياسين بيدين مرتجفتين، وقبل أن يقرأها كاملة، قال له الرسول:

- عليك أن تلتحق بالعمل قبل غروب الشمس.

حاول ياسين الوقوف، لكن جذور الكرسي كانت قد اخترقت حذاءه والتفت حول ساقيه وصعدت إلى صدره. حاول اقتلاعها، واستنجد بالجالسين، لكن كل واحد منهم كان مربوطا بكرسيه.

انتظر الرسول قليلا، ثم أخرج الختم الأحمر وكتب فوق رسالة القبول:

«تخلف عن الالتحاق بالعمل».

وغادر.

صرخ ياسين خلفه:

- لم أتخلف! أنا هنا... لكنكم تركتموني أنتظر حتى صرت عاجزا عن الوقوف!

لم يلتفت الرسول.

وفي اللحظة نفسها، فتح باب المقهى ودخل فوج جديد من الخريجين. كانت شهاداتهم تلمع، ووجوههم ممتلئة بالأمل. جلس شاب صغير إلى جوار ياسين فوق كرسي بدأت تخرج من أرجله جذور رفيعة.

حاول ياسين أن يحذره:

- لا تجلس طويلا... الكرسي يبدأ صغيرا، ثم يصبح جزءا منك.

لكن الجذور كانت قد وصلت إلى حنجرته، فلم يخرج صوته. ابتسم الشاب الجديد وقال:

- لن أبقى هنا طويلا. شهادتي أخبرتني أن مستقبلي قريب.

وعند حلول الليل، ارتفع المقهى حتى غطى نصف المدينة. امتدت جذوره تحت البيوت والمدارس والأزقة، ووصلت إلى أساسات قصر المهن. وكلما ابتلع المقهى سنة من عمر شاب، ازداد القصر ارتفاعا وصلابة.

عندها فهم ياسين الحقيقة: لم تكن جذور الكراسي تمنعهم من الوقوف فقط، بل كانت تتغذى على أحلامهم وتحملها إلى القصر.

لم يكن أهل المدينة يسمون ذلك بطالة. كانوا يسمونه «لعنة الانتظار»؛ تبدأ بوعد صغير، ثم تتحول إلى كرسي، ثم تنتهي بشاب يعتقد أن العجز يسكن فيه، لا في المدينة التي قيدت قدميه.

وظل قصر المهن يفتح منصبا واحدا كل عام، مطمئنا إلى أن المدينة التي تحول شبابها إلى كراس، لن تخاف يوما من وقوفهم.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا

السوق ذو الميزان المائل



أخطر ما في الميزان المائل ليس له أنه مائل...

بل أن يعتاد الناس عليه

Produced by

RH©

كانت مدينة الكفتين مدينة غريبة.

لم يكن أهلها يعرفون من يحكمها بالضبط، لكنهم كانوا يعرفون الشيء الذي يحكم أسعارها.

في وسط المدينة ارتفع ميزان هائل، بلغ من الضخامة أن كفتيه كانتا تريان من أبعد الأحياء.

وكان مائلا منذ زمن بعيد.

كفة مرتفعة بين السحاب.

وأخرى غارقة في الأرض.

ومع ذلك، كانت لوحة ذهبية معلقة تحته تقول:

«الميزان في حالة توازن تام.»

وحين كان طفل يسأل أباه:

- لماذا هو مائل إذن؟

كان الأب يسرع في خطواته ويقول:

- عندما تكبر ستفهم.

لكن معظم الآباء كبروا...

ولم يفهموا.

في مدينة الكفتين، لم تكن الشمس أول ما يستيقظ.

كانت الأسعار.

كل فجر، وقبل أن يصيح الديك، كان جرس الميزان العملاق يدق ثلاث مرات.

دونغ... دونغ... دونغ...

فتفتح الدكاكين أبوابها، وتخرج بطاقات الأسعار من صناديق صغيرة، وتنطلق طائرة في الهواء مثل أسراب الطيور.

كل بطاقة تبحث عن سلعتها.

بطاقة تقفز فوق الطماطم.

وأخرى تتعلق بقنينة الزيت.

وثالثة تستقر فوق اللحم.

وكان السكان يخرجون إلى النوافذ لمراقبتها.

فإذا ارتفعت بطاقة الزيت، تنهدوا.

وإذا ارتفعت بطاقة اللحم، أغلق بعضهم النافذة.

أما إذا ارتفعت كلها في الصباح نفسه، فإن أهل المدينة يعودون إلى النوم قليلا...

لأن بدء اليوم بخبر سيئ يحتاج إلى راحة.

كان مصطفى موظفا بسيطا يعيش مع زوجته أمينة وطفليه.

وفي أول كل شهر، كانت تحدث في بيته معجزة صغيرة.

تدخل النقود إلى محفظته كثيرة ومعتزة بنفسها.

لكن بمجرد أن يقترب من السوق...

تبدأ في الانكماش.

في ذلك الصباح أعطته أمينة قائمة المشتريات.

كانت الورقة طويلة.

نظر إليها مصطفى ثم إلى محفظته الممتلئة وقال بثقة:

- هذه المرة سنشتري كل شيء.

ابتسمت أمينة.

فهي تعرف أن الرجال يصبحون شجعانا جدا قبل دخول السوق.

خرج مصطفى.

وعندما وصل إلى بوابة السوق الأعظم، أخرج محفظته.

توقف.

كانت أصغر قليلا.

فتحها.

النقود نفسها...

لكنها بدت وكأنها انكمشت.

فرك عينيه.

أغلق المحفظة وفتحها ثانية.

أصغر.

رفع رأسه نحو البوابة.

كانت هناك عبارة محفورة فوقها:

«من دخل إلينا بما يكفيه... خرج بما يستطيع.»

ابتلع مصطفى ريقه ودخل.

لم تكن الخضر في السوق موضوعة في صناديق.

كانت تنمو فوق أشجار غريبة.



وكانت الطماطم تتدلى من أغصان مرتفعة، وكلما ارتفع سعرها ارتفعت الأغصان معها.

وقف مصطفى تحت شجرة الطماطم.

مد يده.

ارتفع الغصن.

قفز.

ارتفع أكثر.

جاءه البائع بسلم.

صعد مصطفى.

فارتفعت الشجرة.

وفي النهاية جلس فوق السلم ينظر إلى حبة طماطم بعيدة عنه بنصف متر.

ضحك البائع وقال:

- الأسعار سبقتك هذا الصباح.

اشترى مصطفى حبتين فقط.



وضعهما في كيس.

فأصدر الكيس صوتا غريبا من شدة الفراغ.

واصل طريقه.

وبعد خطوات، التفت إلى الشجرة.

كانت قد ارتفعت مرة أخرى.

قال في نفسه:

«الحمد لله أنني اشتريتها قبل دقيقة.»

في وسط السوق كان هناك مبنى فخم تحرسه بوابة نحاسية.

فوقها كتب:

«دار اللحوم.»

دخل مصطفى.

وجد قطع اللحم موضوعة داخل صناديق زجاجية فوق وسائد حمراء.

وكان حارسان يقفان بجانبها.

اقترب طفل من إحدى القطع.

صرخ الحارس:

- ممنوع اللمس!

أمسكت أمه بيده بسرعة.

أما الزوار فكانوا يسيرون في صمت كما لو أنهم داخل متحف.

رأى مصطفى شيخا يقف أمام قطعة لحم ويتأملها بحزن.

مسح الشيخ دمعة وقال:

- الله يرحم أيامنا.

اشترى مصطفى أصغر قطعة.

وضعها البائع في علبة جميلة وربطها بشريط.

وعندما حملها مصطفى، شعر للحظة أنه اشترى خاتم خطوبة.

بعد قسم الخضر كان لا بد لكل سلعة أن تمر عبر غابة الوسطاء.

مكان لم يكن المواطنون يدخلونه.

لكن مصطفى ضل طريقه ودخله بالصدفة.

رأى هناك شيئا عجيبا.

دخلت عربة طماطم من أحد الأبواب.

قفز عليها رجل صغير وألصق ورقة.

ارتفع ثمنها.

مرت أمام رجل ثان.

وضع ختما.

ارتفع الثمن.

مرت أمام ثالث.

لم يفعل شيئا تقريبا، لكنه أخذ قطعة نقدية.

ثم رابع.

ثم خامس.



حتى خرجت الطماطم من الطرف الآخر من الغابة...

وقد تضاعف ثمنها مرات.

أما الفلاح الذي أرسلها فكان يقف بعيدا يحمل ثلاث قطع نقدية فقط.

ومصطفى في الجهة الأخرى يحمل عشرا.

وبينهما كانت مخلوقات الغابة تتقاسم الفرق.

حاول مصطفى عدهم.

واحد...

اثنان...

ثلاثة...

لكن كلما عد وسيطا ظهر خلفه وسيط آخر.

فاستسلم.

فالوسطاء في مدينة الكفتين كانوا يشبهون رؤوس التنين:

كلما قطعت واحدا...

ظهر اثنان.

في آخر الغابة وجد دكانا صغيرا لا يبيع الطعام.

كانت رفوفه مليئة بقوارير.

على الأولى مكتوب:

«الجفاف.»

والثانية:

«الأسواق الدولية.»

والثالثة:

«المحروقات.»

والرابعة:

«الأزمة العالمية».

والخامسة:

«الظروف.»

وكان صاحب الدكان يخلط منها حسب الحاجة.

إذا ارتفع الزيت، صب قليلا من الأسواق الدولية.

إذا ارتفعت الخضر، أضاف الجفاف.

إذا ارتفع النقل، استعمل المحروقات.

سأله مصطفى عن قارورة سوداء بلا اسم.

اقترب الرجل وهمس:

- هذه أقوى واحدة.

قرأ مصطفى الملصق الصغير:

«أسباب خارجة عن الإرادة.»

أعادها بسرعة إلى مكانها.

فهم أنها تصلح لكل شيء.

فجأة، دقت أجراس غريبة.



طن! طن! طن!

وانتشر صوت في السوق:

«المراقبون قادمون»!

عندها حدثت أعظم معجزة رآها مصطفى في حياته.

نزلت أشجار الطماطم حتى لامست الأرض.

خرج اللحم من صناديقه الزجاجية.

انخفضت بطاقات الأسعار من تلقاء نفسها.

اختفت غابة الوسطاء داخل الضباب.

حتى الميزان العملاق...

استقام.

وقف مصطفى مذهولا.

دخل المراقبون بملابس بيضاء ودفاتر كبيرة.

تجولوا.

كتبوا.

هزوا رؤوسهم بإعجاب.

وفي دفتر كبير كتبت العبارة:

«كل شيء طبيعي.»

ثم غادروا.

انتظر السوق حتى ابتعدوا.

وفجأة...

طاخ!

مال الميزان.

ارتفعت أشجار الطماطم.

عادت اللحوم إلى الصناديق.

خرج الوسطاء من تحت الأرض.

وقفزت الأسعار إلى أماكنها القديمة.

بل إن بعضها ارتفع قليلا تعويضا عن الوقت الذي قضته منخفضة.

ظل مصطفى واقفا وفمه مفتوح.

مر به رجل عجوز وقال:

- أغلق فمك يا بني... لا تدخل إليه الأسعار أيضا.

في الساحة الكبرى كانت هناك مرآة ضخمة تسمى مرآة الرخاء.

وكان المذيعون يقفون أمامها كل مساء ليخبروا أهل المدينة عن حالة السوق.

الغريب أن المرآة لم تكن تعكس الأشياء كما هي.

إذا وقف أمامها كيس فارغ ظهر ممتلئا.

إذا وقف مواطن حزين ظهر مبتسما.

وإذا ظهرت الأسعار المرتفعة، جعلتها المرآة صغيرة لا تكاد ترى.

وقف المذيع أمامها وقال:

- السوق ممتلئ بالسلع.



وكان كلامه صحيحا.

فالسلع موجودة فعلا.

لكن مصطفى نظر إلى محفظته الصغيرة وفهم المشكلة:

لم يكن السؤال هل الطعام موجود في السوق... بل هل يستطيع الطعام الوصول إلى مائدة الناس؟

في آخر السوق وجد مصطفى درجا حلزونيا يصعد داخل الميزان العظيم.

قرر أن يصعد.

مئات الدرجات.

حتى وصل إلى أعلى المدينة.

وهناك رأى الحقيقة.

في الكفة المنخفضة تراكمت أكياس هائلة:

الاحتكار.

المضاربة.

الوسطاء.



ارتفاع التكاليف.

الجشع.

ضعف المراقبة.

وكانت تصل أكياس جديدة باستمرار.

أما الكفة المرتفعة، فلم يكن فيها سوى ظرف صغير.

اقترب مصطفى.

قرأ:

«دخل المواطن.»

وبجانبه عامل نحيل يحمل ريشة صغيرة.

كان يحاول دفع الكفة إلى الأسفل بالريشة.

نظر مصطفى إليه.

نظر العامل إلى مصطفى.

ثم واصل دفع الريشة.

لم يعرف مصطفى هل يضحك أم يبكي.

وجد حجرا ووضعه في كفة المواطن.

فدوت صفارات الإنذار.

خرج حراس الميزان من كل مكان.

«ممنوع تغيير التوازن!»

نظر مصطفى إلى الكفتين.

ثم إلى الحراس.

ولأول مرة في حياته فهم أن «كلمة التوازن» قد يكون لها معنى مختلف تماما عندما ينطق بها من يقف في الكفة الثقيلة.

عاد مصطفى إلى البيت.

كان يحمل أربعة أكياس.

لكن حدث شيء غريب في الطريق.

كلما مشى، صغر أحد الأكياس.

اختفت الفاكهة أولا.

ثم قطعة اللحم.

ثم بعض الزيت.

وكأن الطريق بين السوق والبيت يأكل المشتريات.

وصل أخيرا.

ركض طفلاه نحوه.

فتحت أمينة الأكياس.

نظرت إلى القائمة.

ثم إلى المائدة.

نصف الأشياء فقط وصل.

سأله ابنه:

- بابا... أين النصف الآخر؟

جلس مصطفى.

أخرج محفظته.

كانت صغيرة جدا الآن، حتى إنه استطاع وضعها في راحة يده.

ابتسم لابنه وقال:

- لم أنسه يا بني...

ونظر من النافذة إلى الميزان البعيد.

- لقد أكله الميزان.

مرت السنوات.

ولم يستقم الميزان.

لكن شيئا آخر تغير.

تغير أهل مدينة الكفتين.

في البداية استغنوا عن الكماليات.

ثم بدأت الضروريات تتحول، واحدة بعد أخرى، إلى كماليات.

اختفى اللحم من بعض الموائد.

ثم الفاكهة.

ثم النزهات.

ثم الملابس الجديدة.

ثم الهدايا الصغيرة.

ثم أشياء لم يكن أحد يعرف قيمتها إلا بعد أن اختفت.

وكانت هناك في أطراف المدينة آلة ضخمة تسمى «آلة التكيف.»

كلما ارتفع سعر شيء، أدخل الناس إليه رغباتهم.

فتخرج أصغر.

يدخل رجل وهو يريد كيلو لحم...

فيخرج مقتنعا بأن نصف كيلو صحي أكثر.

تدخل أسرة تريد أسبوعا من الراحة...

فتخرج مقتنعة بأن الجلوس في البيت يوفر المال.

وكلما خفت موائدهم...

أخبرتهم مرآة الرخاء أن المدينة بخير.

حتى جاء يوم خرج فيه طفل صغير مع أبيه.

وقف أمام الميزان العملاق.

نظر إلى الكفة الثقيلة.

ثم إلى الكفة الخفيفة.

وسأل:

- أبي، لماذا لا يصلحون الميزان؟

أجابه الأب:

- يقولون إنه سليم.

فكر الطفل قليلا.

ثم سأله:

- إذا كان الميزان سليما...

فهل نحن الذين أصبحنا خفيفين؟

لم يجد الأب جوابا.

وفي تلك الليلة، انتشر سؤال الطفل في المدينة.

من بيت إلى بيت.

ومن دكان إلى دكان.

حتى وصل إلى أعلى برج الميزان.

وفي الصباح التالي، استيقظ أهل مدينة الكفتين كعادتهم.

كانت الأسعار قد استيقظت قبلهم.

وكان الميزان لا يزال مائلا.

لكن شيئا واحدا لم يعد كما كان.

لأول مرة منذ سنوات...

لم ينظر الناس إلى بطاقات الأسعار.



رفعوا رؤوسهم جميعا نحو الميزان.

فأخطر لحظة في حياة أي ميزان مائل...

ليست عندما يكتشف الناس أنه مائل، بل عندما يتوقفون عن سؤال أنفسهم كيف يعيشون مع ميلانه، ويبدأون بالسؤال عمن أبقاه مائلا كل هذا الوقت.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا

الحافلة التي كانت تصل أمس



حين يكون الطريق إلى الغد مفتوحا لمن يملك
الأجنحة وحده، يظل الباقون يركضون خلف الأمس

Produced by
RH©

ليست مدينة الأيام بعيدة عن مدننا الأخرى، ولا يحتاج الوصول إليها إلى سفينة أو بساط طائر. قد تجدها خلف آخر حي في مدينتك، أو عند أول محطة يقف فيها الناس منذ الفجر، يراقبون طريقا طويلا لا يأتي منه شيء.

وإذا لم تجد اسمها على الخريطة، فلا يعني ذلك أنها غير موجودة؛ فالمدن التي تضيع فيها أعمار الناس لا تحب أن تكتب أسماءها بوضوح.

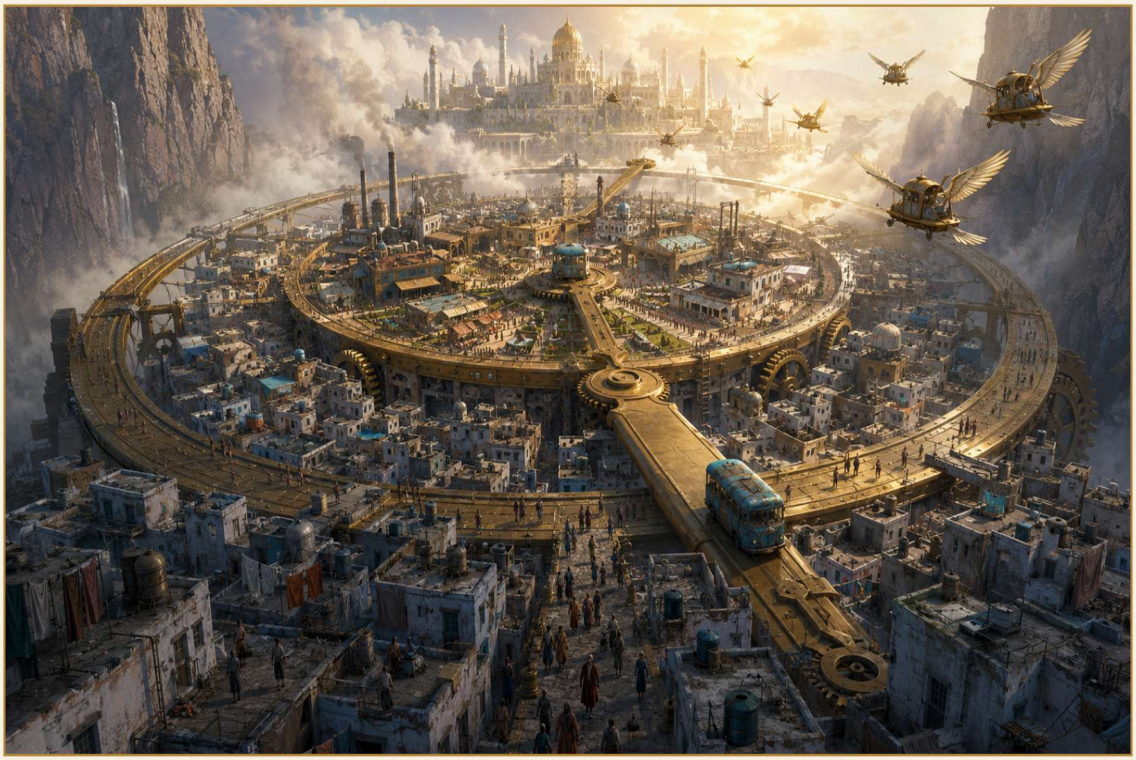

كانت مدينة الأيام مبنية فوق ساعة عملاقة تمتد بين جبلين. في دائرتها الخارجية يقع حي واسع اسمه الأمس، تسكنه أسر العمال والطلبة وصغار الموظفين. وفي وسط الساعة توجد منطقة اليوم، حيث المصانع والمدارس والمستشفيات والأسواق. أما فوق البرج العالي، خلف الغيوم، فتوجد أحياء الغد، وفيها القصور والحدائق ومكاتب كبار المسؤولين.

كان سكان الغد يتنقلون في عربات ذهبية لها أجنحة، تهبط أمام بيوتهم وتحملهم إلى أي مكان يريدون. وسكان اليوم يملكون عربات صغيرة تسير فوق عقارب الساعة.

أما سكان الأمس، فلم تكن لديهم سوى حافلة واحدة ضخمة، زرقاء اللون، مصنوعة من الحديد والنحاس، تحمل الرقم سبعة.

قيل إن الحافلة كانت، عند صنعها، تملك اثني عشر جناحا، وتستطيع عبور المدينة كلها قبل أن يتحرك عقرب الدقائق خطوة واحدة. لكن أجنحتها اختفت مع مرور السنوات، ولم يبق منها سوى جناحين مكسورين يتدليان من جانبيها.

وكانت أجرة الحافلة أغرب من الحافلة نفسها.

ففي مدينة الأيام، لا يدفع الفقراء ثمن تنقلهم بالنقود، بل يدفعون من أعمارهم. يحمل كل شخص ساعة صغيرة معلقة قرب قلبه، وعندما يصعد الحافلة، يثقب المحصل تذكرته فتختفي ساعة من حياته.

ومن يركب الحافلة كل يوم، يكبر أسرع ممن يسافرون في العربات المجنحة.

لذلك كان يمكن أن ترى عاملا في الثلاثين، شعره أبيض وظهره منحن، بينما يبدو مديره، الذي يكبره بعشرين سنة، أكثر شبابا منه.

كان أيوب يعيش مع أمه في بيت صغير عند آخر زقاق من حي الأمس. وبعد سنوات من البحث، حصل على وظيفة في مصنع النوافذ بمنطقة اليوم.

كان المصنع يصنع نوافذ خاصة لبيوت الغد؛ نوافذ لا تظهر للسكان إلا المناظر الجميلة، وتحجب عنهم الأحياء البعيدة والدخان والطرقات المزدحمة.

سلم مدير المصنع أيوب رسالة القبول وقال له:

- يبدأ عملك غدا عند دقة الساعة الثامنة. إذا وصلت بعد مرور العقرب، ستمنح الوظيفة لشخص آخر.

عاد أيوب إلى أمه وهو يكاد يطير من الفرح. قرأت رسالة القبول أكثر من مرة، ثم أخرجت من صندوق قديم قميصا كان لوالده وبدأت تكويه.

كان والد أيوب سائقا للحافلة رقم سبعة. خرج ذات صباح في رحلة إلى منطقة اليوم، وكان شابا في الخامسة والثلاثين، لكنه عاد إلى البيت بعد أسبوع شيخا تجاوز السبعين.

لم يعرف أحد ما حدث له داخل الحافلة. ومنذ عودته، لم يعد يتحدث كثيرا. كان يجلس قرب النافذة، ينظر إلى عقارب المدينة وهي تدور، ويتمتم:

- الطريق ليست طويلة... الطريق مغلقة.

وضعت الأم القميص أمام أيوب وقالت:

- لا تدع الحافلة تأكل عمرك كما أكلت عمر أبيك.

ابتسم أيوب مطمئنا:

- إنها رحلة واحدة يا أمي. سأصل إلى المصنع، وبعد أول راتب سأبحث عن وسيلة أخرى.

لكنه لم يكن يعرف أن الرحلة الواحدة في مدينة الأيام قد تكون أطول من عمر كامل.

خرج أيوب قبل الفجر، فوجد محطة الأمس معلقة عند طرف عقرب الساعات. وتحت المظلة تجمع مئات الأشخاص، رغم أن الشمس لم تشرق بعد.

كانت بينهم تلميذة اسمها نور تحمل حقيبة أكبر من جسدها، وفي يدها استدعاء لاجتياز امتحان مهم في مدرسة اليوم. وكانت هناك ممرضة تدعى مريم تحمل صندوق دواء يجب أن يصل إلى المستشفى قبل الظهر. وبجانبها جلس عامل اسمه إدريس يحتضن خوذته الصفراء وينظر إلى صورة طفل صغير.

قال أيوب مشيرا إلى الصورة:

- ابنك؟

أجاب إدريس:

- كان صغيرا عندما صعدت الحافلة.

ثم قلب الصورة، فظهرت على الجهة الأخرى صورة شاب له شارب خفيف.

- وهذه صورته الآن.

ظن أيوب أنه يمزح، لكن إدريس لم يبتسم.

اهتزت المحطة فجأة، وظهر من بين الضباب رأسان من الضوء، ثم خرجت الحافلة رقم سبعة كوحش حديدي ضخم. كانت نوافذها تشبه عيونا متعبة، ومن سقفها تصاعد دخان اتخذ شكل ساعات سوداء تلاشت في السماء.

فتح الباب مثل فم كبير، وظهر المحصل مرتديا معطفا طويلا تغطيه جيوب مليئة بالتذاكر.

سأل أيوب:

- إلى أين؟

- إلى منطقة اليوم.

أمسك المحصل الساعة الصغيرة المعلقة قرب قلبه، وثقب التذكرة ثلاث مرات.

شعر أيوب ببرودة تمر في جسده، ثم سقطت من رأسه شعرة سوداء تحولت إلى بيضاء قبل أن تلامس الأرض.

قال محتجا:

-أخذت ثلاث ساعات!

أجابه المحصل:

- ساعة للرحلة، وساعة للازدحام، وساعة احتياطية للتحويلات الطارئة.

- وهل سنصل قبل الثامنة؟

نظر المحصل إلى الساعة العملاقة في السماء وقال:

- سنصل عندما يسمح لنا الطريق.

كانت الحافلة من الداخل أكبر كثيرا مما تبدو عليه من الخارج.

وجد أيوب فيها أزقة طويلة ومقاعد متراكمة فوق بعضها، وسلالم تؤدي إلى طوابق لا ترى نهايتها. بعض الركاب نصبوا خياما صغيرة بين المقاعد، وآخرون أشعلوا مواقد لإعداد الشاي.

كان هناك بائع خبز يقول إنه صعد في رحلة صباحية منذ خمس سنوات، وحلاق يقص الشعر الأبيض الذي ينبت في رؤوس المسافرين أثناء الانتظار، وامرأة أنجبت طفلها داخل الحافلة، ثم كبر الطفل وصار يساعدها في حمل الأمتعة.

وفوق الجميع كانت هناك لوحة كبيرة تكرر:

«المحطة المقبلة: اليوم.»



تحركت الحافلة، فتعالت أصوات الحديد. صعدت فوق عقرب الدقائق وبدأت تعبر الفراغ الفاصل بين الأمس واليوم.

ومن بعيد ظهرت المصانع والمدارس والمستشفى. رأى أيوب برج مصنع النوافذ، وكانت الساعة تقترب من السابعة.

فرح الركاب ووقفوا قرب الأبواب.

لكن قبل وصول الحافلة إلى الجسر، أضاءت السماء بإشارة حمراء، ودوى صوت قادم من برج المدينة:

«يرجى إفساح الطريق لعبور عربات الغد.»

توقفت الحافلة.

فتح جسر ذهبي في الأعلى، وعبرت عربة مجنحة تحمل مسؤولا واحدا، بينما تبعتها عربتان فارغتان: واحدة لحمل حقيبته، وأخرى تحسبا لتعطل العربة الأولى.

انتظر ركاب الحافلة حتى مرت العربات الثلاث. وعندما فتح الطريق من جديد، كانت منطقة اليوم قد تحركت بعيدا مع دوران الساعة.

قال السائق:

- فاتنا العقرب. سنسلك الطريق الدائري.



احتج الركاب، لكن المحصل بدأ يمر بينهم.

- ساعة إضافية مقابل تغيير الطريق.

صرخت الممرضة:

- لم نختر تغيير الطريق!

ثقب تذكرتها وقال:

- الطريق لا يسأل من اختاره.

دخلت الحافلة نفقا مظلما كتب فوقه: «تحويل مؤقت.» لكن النفق كان دائريا، وكلما خرجت الحافلة من نهايته، وجدت نفسها عند بدايته.

أعيدت الرحلة مرة، ثم مرتين، ثم عشر مرات.

في كل دورة كان المحصل يأخذ ساعة جديدة من أعمارهم.

كبرت نور قليلا، وصار زيها المدرسي ضيقا عند الكتفين. ذبل وجه إدريس، وظهرت في لحيته خصلات بيضاء. أما صندوق الدواء الذي تحمله مريم، فقد بدأ الضوء الأخضر داخله يضعف.

نظر أيوب من النافذة، فرأى مصنع النوافذ يبتعد. دقت الساعة الثامنة، ثم التاسعة، بينما ظلت اللوحة تقول:

«المحطة المقبلة: اليوم.»



أمسك أيوب بالمحصل وسأله:

- لماذا نتحرك ولا نصل؟

أجابه المحصل:

- لأن الحافلة تسير فوق عقارب الساعة، والعقارب لا تنتظر أحدا.

- والعربات المجنحة تصل!

- لأنها لا تسير فوق الوقت، بل تطير فوقه.

وأشار أيوب إلى الجناحين المكسورين:

- ألم تكن للحافلة أجنحة؟

خفض المحصل عينيه وقال:

- اسأل الذين أخذوها.

في آخر الطابق السفلي وجد أيوب بابا حديديا كتب عليه:

«ممنوع الدخول إلا لمن يملك الوقت.»

وضع ساعته قرب القفل، فانفتح الباب.

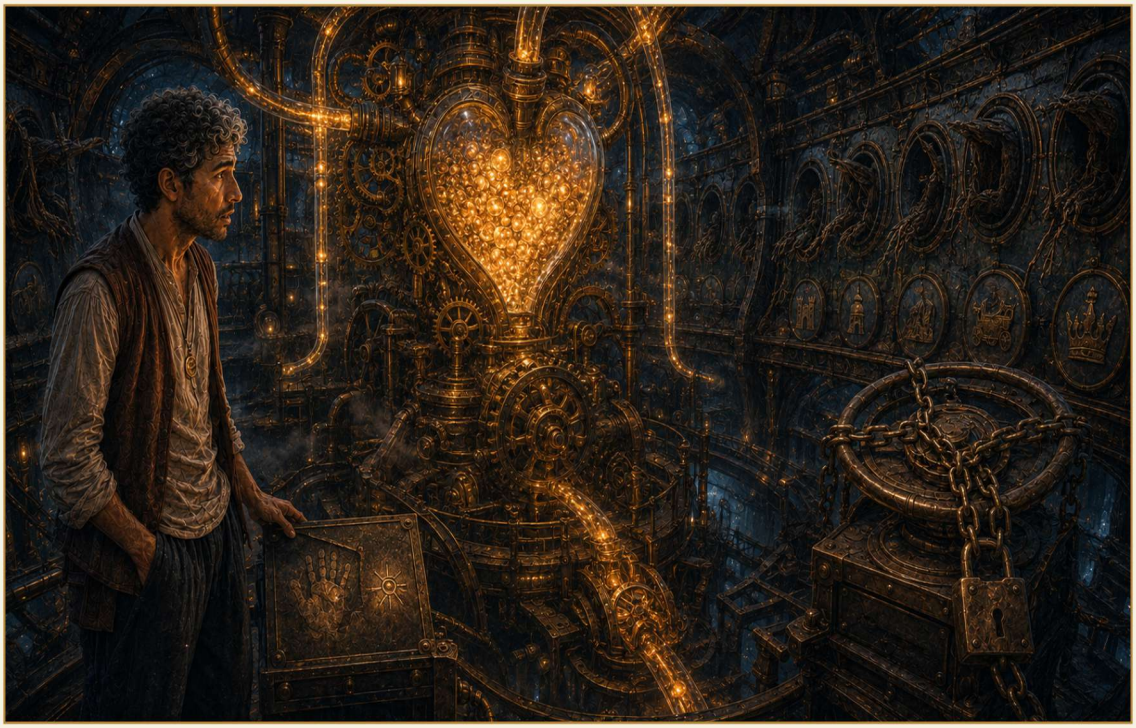

نزل سلما طويلا حتى وصل إلى قلب الحافلة. وهناك رأى آلة هائلة تشبه الساعة، تتوسطها قارورة زجاجية تمتلئ بضوء ذهبي.

كلما ثقب المحصل تذكرة أحد الركاب، خرجت ساعة من عمره على شكل حبة مضيئة، وسقطت داخل القارورة. وكانت الآلة تلتهم الساعات وتحولها إلى طاقة تحرك الحافلة.

لم تكن الحافلة تعمل بالوقود.

كانت تعمل بأعمار ركابها.

وعلى الجدار وجد أيوب اثني عشر مكانا فارغا كانت أجنحة الحافلة مثبتة فيها. وتحت كل مكان لوحة صغيرة تشرح أين ذهب الجناح:

«الجناح الأول: استعمل لصنع بوابة قصر الحركة.»

«الجناح الثاني: وضع كنصب تذكاري أمام محطة الغد الذكية.»

«الأجنحة من الثالث إلى الثامن: بيعت لشركة العربات الخاصة.»

«الجناح التاسع: استعمل لتزيين عربة رئيس المدينة.»

أما بقية الأجنحة، فقد اختفت من السجلات.

اقترب أيوب من مقعد السائق، فوجد عجلة القيادة مربوطة بسلسلة ذهبية، وإلى جانبها عبارة محفورة:

«المسار المباشر إلى اليوم مخصص للعربات المجنحة.»

وبالقرب منها وجد كلمات صغيرة مخدوشة على الحديد:

«لم تكن الحافلة بطيئة، بل كان الطريق مغلقا.»

تعرف أيوب إلى خط أبيه.

فهم عندها أن والده لم يفقد عمره بسبب عطل أو رحلة طويلة. لقد ظل سنوات يقود الحافلة حول المدينة، ممنوعا من استعمال الطريق القصير، بينما كانت الآلة تأكل عمره وعمر الركاب.

عاد أيوب إلى الطابق العلوي وأخبرهم بما رأى.

ساد الصمت.

نظر إدريس إلى صورة ابنه، ونظرت نور إلى يديها اللتين لم تعودا يدي طفلة، بينما فتحت مريم صندوق الدواء فوجدت أن الضوء انطفأ تماما.

اقترب المحصل ليأخذ ساعة جديدة بسبب استمرار التحويل، لكن أيوب أخفى تذكرته.

قال المحصل:

- إذا لم تدفعوا، ستتوقف الحافلة.

أجابه أيوب:

- نحن ندفع منذ سنوات، ومع ذلك لم نصل.

رفضت نور أن تمد يدها. وأغلقت مريم الساعة المعلقة قرب قلبها. ثم رفض إدريس، وبعده بقية الركاب.

انطفأ الضوء داخل المحرك، وتوقفت الحافلة فوق عقرب الساعة، في منتصف المسافة بين الأمس واليوم.

اهتزت المدينة كلها.

لأول مرة، لم يستطع العقرب أن يدور، لأن الحافلة الثقيلة كانت تقف فوقه. تعطلت ساعات القصور، وتوقفت نوافير الغد، وتأخرت العربات المجنحة دقائق قليلة.

وبعد لحظات، نزل رئيس مجلس الحركة من عربة ذهبية، وخلفه حراس يحملون ساعات كبيرة.

صرخ في الركاب:

- حركوا الحافلة فورا! لقد عطلتم المدينة.

وقف أيوب عند الباب وقال:

- المدينة عطلت حياتنا سنوات، ولم يأت أحد.

قال المسؤول:

- ادفعوا الأجرة وسيعمل المحرك.



رفعت نور تذكرتها المثقوبة:

- دفعنا من أعمارنا أكثر مما تستحق الرحلة.

وأشار إدريس إلى الأحياء البعيدة:

- أخذتم أجنحة الحافلة، ثم طلبتم منا أن ندفع ثمن بطئها.

أمر المسؤول الحراس بإخراج الركاب، لكن الحافلة كانت قد امتلأت بآلاف الأشخاص الذين قضوا سنوات داخلها. خرجوا من أبوابها ونوافذها، ووقفوا فوق عقرب الساعة حتى بدا كأنه شارع مزدحم بالبشر.

قال أيوب:

- إذا كانت الحافلة لا تستطيع الوصول بنا إلى اليوم، فسنصنع منها طريقا.

بدأ العمال يفكون المقاعد، وحولوها إلى ألواح طويلة. نزعت الممرضة الأشرطة من صندوق الدواء وربطت بها الحديد. رسمت نور الطريق فوق النوافذ الزجاجية، بينما أخرج السائق الجناحين المكسورين وثبتهما في بداية الجسر.

حتى الرجل الذي قضى سنوات يبيع الخبز داخل الحافلة، حمل صفيحة حديدية ووضعها في مكانها.

فككوا جدران الحافلة وسقفها وأبوابها، قطعة بعد أخرى، ومدوها فوق الفراغ الفاصل بين الأمس واليوم.

ومع كل قطعة يضعونها، كان الجسر يضيء بساعة من العمر رفضوا أن تدفعها الحافلة.



عندما انتهوا، لم يبق من الحافلة سوى اللوحة التي تحمل الرقم سبعة.

عبر السكان الجسر للمرة الأولى من دون أن يثقب أحد تذاكرهم. وصلوا إلى منطقة اليوم بأقدامهم، ولم يخسروا دقيقة واحدة من أعمارهم.

كانت مدرسة نور قد أغلقت أبواب الامتحان، وفسد الدواء الذي تحمله مريم، وفقد إدريس سنوات لم ير فيها ابنه يكبر.

أما أيوب، فعندما وصل إلى مصنع النوافذ، وجد اسمه مشطوبا من سجل العمال.

طوى رسالة القبول ووضعها تحت أول لوح في الجسر، حتى يتذكر العابرون الثمن الذي دفعه من سبقهم.

وصل رئيس مجلس الحركة غاضبا، ونظر إلى المكان الذي كانت تقف فيه الحافلة.

- أين الحافلة رقم سبعة؟

أجابه أيوب:

- تركناها في الأمس، وبنينا بأجزائها طريقا إلى اليوم.

في صباح اليوم التالي، عبر الأطفال الجسر إلى مدارسهم، ووصل العمال إلى مصانعهم، وحملت الممرضات الدواء إلى المستشفى قبل أن ينطفئ نوره.

حاول المسؤولون تسمية الجسر «مشروعا جديدا للنقل»، وعلقوا عند مدخله لوحة كبيرة تحمل صورهم، لكن السكان أزالوها وكتبوا مكانها:

«هذا الجسر بني من أعمار الذين لم يصلوا.»

أما اللوحة القديمة التي كانت فوق الحافلة، فبقيت معلقة في مدخل حي الأمس. وكلما سأل طفل عن معنى الرقم سبعة، حكى له الكبار قصة الحافلة التي كانت تتحرك طوال اليوم، وتلتهم أعمار ركابها، ثم تعيدهم إلى المكان نفسه.

ومنذ ذلك الحين، لم يعد سكان مدينة الأيام يقولون إن الحافلة تتأخر، بل يقولون:

«إنها تصل دائما... ولكنها تصل أمس.»

ومدينة الأيام، كما قلنا، ليست بعيدة عن مدننا الأخرى.

فهي تظهر في كل حي يكبر من دون أن تصل إليه وسائل النقل، وفي كل حافلة مكتظة تستهلك ساعات العمال والطلبة، وفي كل طريق يفتح سريعا لمن يملك عربة خاصة، بينما يبقى الآخرون ينتظرون على الرصيف.

فأزمة النقل ليست مجرد حافلة لا تأتي في موعدها؛ إنها وظيفة تضيع، ودراسة تتعطل، وعلاج يتأخر، وجزء من العمر يدفع كل صباح من أجل الوصول.

وحين يكون الطريق إلى الغد مفتوحا لمن يملك الأجنحة وحده، سيظل الباقون يركضون خلف حافلة لا تحملهم إلى المستقبل، بل تعيدهم دائما إلى الأمس.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا

الحي الذي ابتلعته أكياسه

الأحياء المنسية لاتختفي حين تمحى من الخرائط

Produced by

RH©

لم تكن مدينة النقاء بعيدة عن مدننا الأخرى. فمن غادر مدينة الطوابير، وعبر السوق ذي الميزان المائل، ثم ركب الحافلة التي كانت تصل أمس، أمكنه أن يراها قائمة فوق سبع طبقات من الأرض، بيضاء من بعيد، تلمع تحت الشمس كأن الغبار لم يعرف إليها طريقا.

وكانت لكل طبقة شوارعها وحدائقها ونافوراتها، غير أن سكان الطبقة العليا لم يكونوا يرون من يسكن تحتهم، لأن كل طبقة كانت تظن سقف الطبقة الأدنى جزءا من أرضها.

أما في القاع، حيث تنتهي الدرجات السبع وتنقطع السلالم، فكان يقع حي الريحان.

ولم يكن في الحي ريحان.

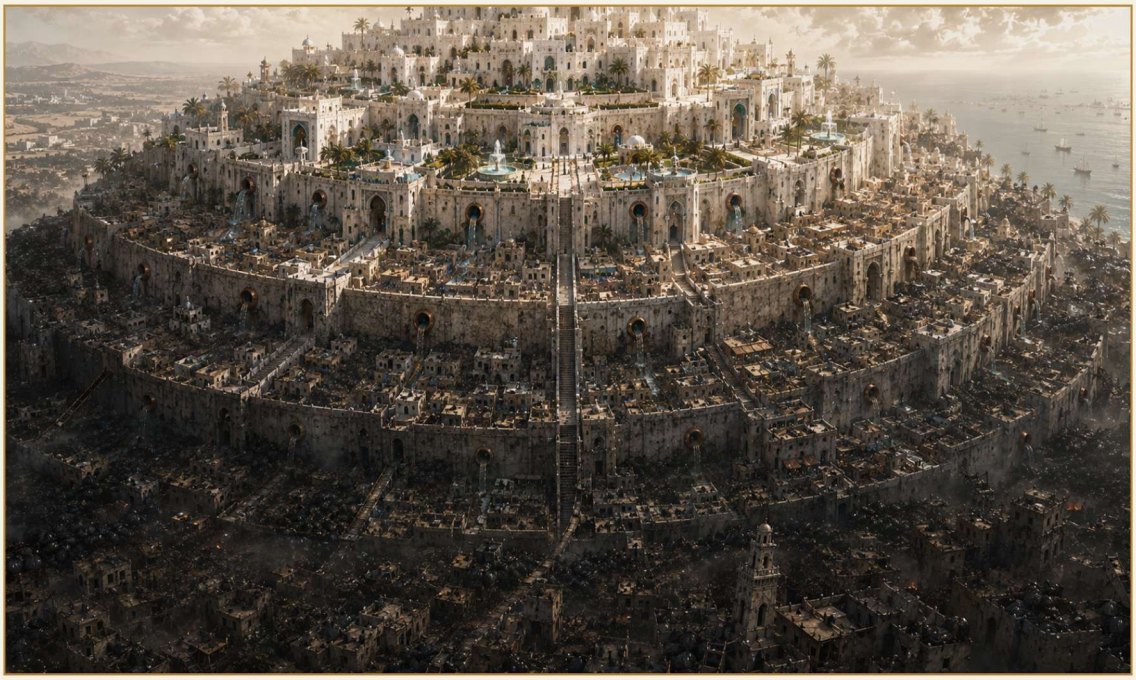

قيل إن نبعا كان يتفجر قديما في ساحته، وإن رائحته كانت تبلغ شرفات المدينة العليا. لكن أحدا لم يعد يعرف أين اختفى النبع، ولا في أي سنة دفنت آخر شجرة. فقد كان أهل حي الريحان يقيسون أعمارهم بطبقات النفايات، لا بالأعوام.

يقولون:

ولد فلان في سنة الزجاج الأزرق.

وتزوجت فلانة في شتاء الأحذية المقطوعة.

ومات الشيخ عمران في موسم الأوراق المحروقة.

أما السنوات الحقيقية، فقد بقيت في دفاتر المدينة العليا، حيث لا تتسخ التواريخ.

لم تكن في مدينة النقاء عربات لجمع القمامة، ولا عمال يحملون المكانس. فقد اخترع مهندسوها، منذ زمن بعيد، وسيلة قالوا إنها ستقضي نهائيا على النفايات.

ثبتوا في كل شارع فما نحاسيا كبيرا بلا أسنان، ونقشوا فوقه:

«ما يدخل من هنا يختفي إلى الأبد.»

كان المواطن يفتح الفم، ويلقي داخله بما لم يعد يريده، ثم يدير مقبضا فضيا. فيسمع صوت الشيء وهو يهوي بعيدا داخل أحشاء المدينة، قبل أن يعود الفم إلى صمته ولمعانه.

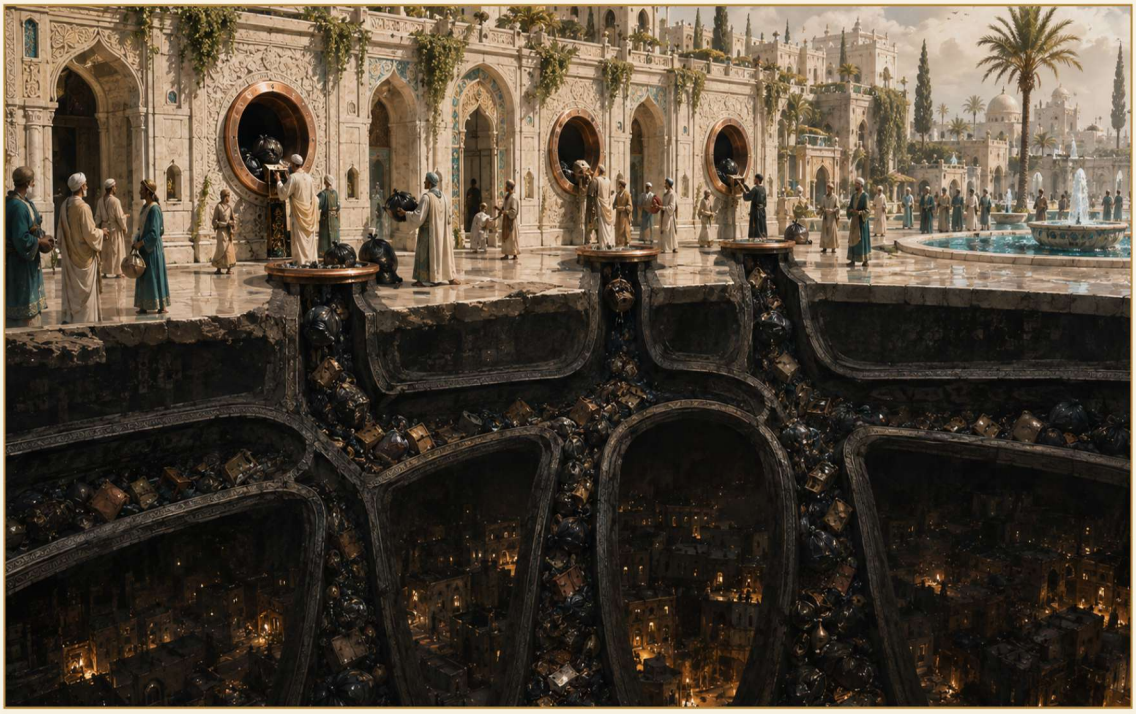

ألقت البيوت فيها بقايا طعامها، ورمت المتاجر صناديقها، وتخلصت الدواوين من ملفاتها القديمة. حتى الوعود التي انتهت صلاحيتها كانت تطوى بعناية، وتوضع في أكياس محكمة، ثم ترمى في تلك الأفواه.

وكان الناس يشعرون براحة عجيبة كلما اختفى شيء من أمامهم.

لم يسألوا إلى أين يذهب.

فالنظافة في مدينة النقاء لم تكن تعني ألا تصنع القذارة، بل أن تنجح في إبعادها عن عينيك.

تحت الشوارع البيضاء، كانت تمتد عروق حجرية سوداء تتقاطع في جوف المدينة. وكل ما يدخل من الأفواه النحاسية يسافر عبرها من طبقة إلى أخرى، حتى يصل إلى نهايتها الوحيدة:

حي الريحان.

هناك، كانت سبعة منافذ ضخمة تفتح أفواهها كل ليلة، فتقذف ما ابتلعته المدينة نهارا.

منفذ للأطعمة المتعفنة.

ومنفذ للأثاث المحطم.

ومنفذ للقوارير والمعادن.

ومنفذ للأوراق.

أما المنافذ الثلاثة الأخرى، فلم يكن أحد يعرف ما يخرج منها. كانت مغلقة بأبواب حديدية، لكن أنينا خافتا كان يسمع خلفها كلما نامت المدينة.



كان إدريس يعمل بناء للعتبات.

لم يكن يبني البيوت، فبيوت حي الريحان بنيت منذ زمن. كانت مهمته أن يرفع أبوابها كلما ارتفعت أرض الحي.

حين يصل منسوب النفايات إلى عتبة منزل، يسد إدريس الباب القديم بالحجارة، ويفتح بابا جديدا فوقه، ثم يبني إليه سلما.

وبعد سنوات، يصبح الباب الجديد قديما، فيغلقه ويفتح آخر أعلى منه.

لهذا بدت منازل الحي كأنها أبراج نبتت فوق بيوت مدفونة. وكانت في أسفل كل منزل غرف لم يدخلها أحد منذ أعوام، ونوافذ صارت آبارا، وسلالم تنزل إلى أبواب لم تعد تفضي إلى شيء.

احتفظ إدريس بمفاتيح الأبواب التي أغلقها.

كان يضعها في صندوق حديدي ورثه عن أبيه. وعلى كل مفتاح قطعة نحاس صغيرة كتب عليها اسم صاحبه وعنوان بيته القديم.

مفتاح دار الحاج سليمان، قرب النبع.

مفتاح بيت مليكة، أمام شجرة الريحان.

مفتاح مخبزة العم ناصر، عند الساحة.

لم يعد النبع موجودا، ولا الشجرة، ولا الساحة. لكن إدريس كان يقول إن المكان الذي بقي مفتاحه لا يختفي تماما.

كان بيته نفسه يملك سبعة أبواب مدفونة.

قالت له زوجته صفية ذات مساء، وهي تنظر إلى الباب الثامن الذي بدأ السواد يزحف نحو عتبته:

- متى ستبني لنا بابا جديدا؟

طرق إدريس الأرض بعصاه الحديدية، ثم أصغى.

كان معتادا أن يسمع تحت قدميه صلابة طبقات تراكمت فوق بعضها. لكنه سمع هذه المرة صوتا أجوف، عميقا، كأن تحت البيت بئرا بلا قرار.

قال:

- لن أبني بابا آخر.

سألته صفية:

- لماذا؟

أعاد الطرق، فارتج البيت وخرج الغبار من شقوق الجدار.

- لأن النفايات لم تعد ترتفع.

نظرت من النافذة إلى التلال السوداء التي حجبت نصف السماء.

- إنها أعلى من أسطحنا.

قال إدريس:

- هي لم تتوقف عن الارتفاع... نحن الذين بدأنا نهبط.

في الأيام التالية، أخذ إدريس يجوب الحي بعصاه وخيط القياس.

غرس أوتادا عند الجدران، ورسم خطوطا حمراء فوق الأبواب. وفي كل صباح كان يجد البيوت قد هبطت مقدار إصبع.

بعد أسبوع، صارت النوافذ أقرب إلى الأرض.

وبعد أسبوعين، اختفى أول درج من سلالم المسجد.

أما النفايات فواصلت صنع جغرافيتها الخاصة.

قرب الجهة الشرقية، نشأت غابة من أرجل الكراسي المكسورة، تتشابك فوق الرؤوس كأغصان يابسة. وفي الغرب امتدت بحيرة من الزيوت الفاسدة، يعكس سطحها أبراج المدينة مقلوبة. وبينهما ارتفعت تلال من الثياب القديمة، تخرج منها أكمام فارغة تلوح كلما مرت الريح.

أما الأكياس، فقد تعلقت بالمآذن والأسطح وأسلاك الجسور. وحين تهب الرياح، كانت ترتفع معا وتصنع سماء سوداء ثانية تحت السماء.

لم تكن الأكياس حية، لكنها لم تكن ميتة أيضا.

كانت تحتفظ بشيء من كل ما حملته.

وفي الليالي الصامتة، حين يحتك بعضها ببعض، كان سكان الحي يسمعون أصواتا قادمة من داخلها: بكاء رضيع من ثوب صغير، ضحكة عروس من شريط ممزق، شكوى مواطن بقيت سنوات في درج مغلق، ووعدا انتخابيا يكرر نفسه بصوت متقطع.

كان حي الريحان مستودعا لذاكرة مدينة قررت أن تنسى.

صعد إدريس إلى الطبقة العليا ليحذر مجلس المدينة.

كلما ارتقى درجة، صار الهواء أخف والرائحة أطيب. وعند مدخل الطبقة السابعة، أوقفه حارسان يرتديان ثيابا بيضاء.

قال أحدهما:

- لا يمكنك الدخول بهذه الرائحة.

أجاب إدريس:

- إنها رائحة مدينكم.

رش الحارس عليه عطرا قويا، ثم أعطاه ثوبا رماديا ليغطي ملابسه. وبعدها سمح له بالمرور بشرط ألا يلمس الجدران.

وجد إدريس الساحات لامعة، والمياه تجري في قنوات زرقاء، والأشجار مقصوصة حتى بدت جميعها متشابهة. وكان الناس يلقون أكياسهم في الأفواه النحاسية، ثم يتابعون طريقهم من دون أن يلتفتوا إلى صوت سقوطها.

دخل ديوان المحو والنقاء العام، وعرض قياساته على موظف ذي أصابع ناعمة.

قال إدريس:

- حي الريحان يغوص، الأرض تحته صارت مجوفة، والعروق الحجرية تضغط عليه من كل جانب. يجب إغلاق أفواه المحو قبل أن ينهار الحي.

قلب الموظف الخرائط، ثم قال:

- لا يوجد حي بهذا الاسم.

أشار إدريس إلى أسفل الخريطة.

- كان هنا.

- هذه المنطقة تحمل الرمز سبعة، وهي مصنفة حوضا مؤقتا للأشياء المنتهية.

- يعيش فيها آلاف الناس.

عدل الموظف نظارته وقال:

- لو كان يعيش فيها آلاف الناس لظهرت في سجل السكان.



- لقد توقفتم عن إحصائهم.

- إذن لا يمكننا التأكد من وجودهم.

أمسك إدريس طرف المكتب حتى لا يصرخ.

- الحي يهبط كل يوم.

ابتسم الموظف ابتسامة صغيرة وقال:

- ما لا يظهر على الخريطة لا يمكنه أن يغرق.

ثم دفع إليه كتيبا بعنوان: «كيف تحافظ على نظافة محيطك؟»

وقبل أن يغادر إدريس، سمع الأبواق في الساحة. خرج الناس إلى الشرفات، وظهر رئيس المجلس فوق منصة بيضاء، يعلن أن المدينة ستحتفل بعد ثلاثة أيام بعيد البياض الأكبر.

وفي ذلك العيد، ستفتح جميع أفواه المحو دفعة واحدة، وسيطلب من كل بيت أن يتخلص من أشيائه القديمة، حتى تستقبل المدينة العام الجديد بلا أثر للماضي.

صفق الناس، وأخذوا يتخيلون البيوت وقد خلت من كل ما يزعجهم.

أما إدريس، فنظر إلى الأفواه النحاسية المنتشرة في الساحة، ورآها لأول مرة كما هي:

لم تكن آلات للنظافة.

كانت آلاف الحناجر المفتوحة فوق رأس حي الريحان.

عاد إدريس إلى الحي، وجمع السكان في الساحة التي لم يبق منها سوى دائرة ضيقة بين التلال.

قال لهم:

- علينا أن نغادر قبل عيد البياض.

سأله شيخ يحمل مفتاحا صدئا:

- نصعد إلى أين؟

- إلى المدينة العليا.

ضحك رجل من آخر الجمع:

- إنهم لا يسمحون لرائحتنا بدخول شوارعهم.

وقالت امرأة:

- بيتي هنا. دفنت تحته أمي وأبي، ولن أتركهما وسط الأزبال.

أجاب إدريس:

- إن بقيتم، ستدفنون فوقهما.

انقسم السكان بين مصدق ومكذب. بعضهم بدأ يجمع أمتعته، وبعضهم عاد إلى بيته كأن عدم التفكير في الكارثة سيمنعها.

حاول إدريس فتح الطريق المؤدية إلى أعلى المدينة، لكنه وجد البوابة الحديدية مغلقة. علقت عليها لافتة:

«يمنع المرور حفاظا على نظافة احتفالات عيد البياض.»

طرق الباب حتى سال الدم من يده، ولم يجبه أحد.

عندها عاد إلى صندوق المفاتيح، وأفرغه أمام السكان.

قال:

- إذا كانت المدينة قد أغلقت بابها، فسنصنع بابنا بأنفسنا.

حفر الرجال والنساء في طبقات الحي، وأخرجوا الأبواب القديمة التي أغلقها إدريس وأبوه من قبله. أبوابا خشبية، وأخرى حديدية، وأبوابا ما زالت عليها أسماء أصحابها.

جمعوها وربطوها بالحبال، ثم صنعوا منها جسرا طويلا يصعد فوق تلال النفايات حتى سور المدينة.

كان كل باب في الجسر يعود إلى بيت اختفى.

وحين انتهوا، بدا كأن الحي كله مد تاريخه نحو الأعلى محاولا النجاة.

حل عيد البياض.

ارتدى أهل المدينة العليا ثيابا ناصعة، وفرشوا الساحات بالورد. وعند الظهر، قرعت الأجراس سبع مرات.



مع القرعة الأولى، فتحت أفواه المحو.

ومع الثانية، ألقت البيوت أثاثها القديم.

ومع الثالثة، أفرغت المتاجر مخازنها.

ومع الرابعة، دفعت الدواوين ملفات الشكايات والتقارير التي لم ترغب في الاحتفاظ بها.

ومع الخامسة، ألقى السياسيون خطب العام الماضي، استعدادا لخطب جديدة.

ومع السادسة، بدأت العروق الحجرية تحت المدينة ترتج.

أما عند القرعة السابعة، فقد ألقت مدينة النقاء ماضيها كله في جوفها.

وصل الصوت إلى حي الريحان كهدير بحر تحت الأرض.

انفتحت المنافذ السبعة دفعة واحدة، وانفجرت منها سيول سوداء. لم تكن النفايات تتدفق فوق الأرض فقط؛ كانت تصعد من الشقوق، وتخرج من الآبار، وتندفع عبر جدران البيوت.

اهتز الحي.

مالت المئذنة.

وغاصت الساحة حتى اختفت في لحظة واحدة.

صرخ إدريس:

- إلى الجسر!

صعد السكان فوق الأبواب المربوطة، يحملون الأطفال والعجائز وما استطاعوا إنقاذه. وتحت أقدامهم، كانت بيوتهم تهبط ببطء في جوف المدينة.

ارتفعت الأكياس مع الريح، والتحمت في السماء حتى حجبت الشمس. صار النهار أسود، ولم يعد يرى إلا بياض الأعين ولمعان المفاتيح.

لم يكن للكارثة شكل وحش، ولا فم واحد يمكن إغلاقه. كانت المدينة كلها هي الفم.

سقط أول منزل، ثم الثاني. لم تنهدم البيوت، بل غاصت كاملة كما تغوص الحجارة في الماء. اختفت الأسطح، ثم المداخن، ثم أطراف النوافذ.

وصل معظم السكان إلى السور، لكن إدريس بقي في الخلف يساعد من تعثروا.

نادت عليه صفية من أعلى الجسر:

- تعال! لم يبق شيء!

نظر إدريس إلى بيته. لم يعد ظاهرا منه سوى الباب الثامن. وبعد لحظات، لامست النفايات عتبته وبدأت تغطيه.

دخل للمرة الأخيرة.

أخرج صندوق المفاتيح، وحمله إلى أحد المنافذ التي كانت تقذف سيلها الأسود. عرف أن العروق كلها تتصل بالفم النحاسي الكبير القائم في ساحة مجلس المدينة.

وضع الصندوق داخل كيس، وألقاه عكس التيار بكل قوته.

ثم صعد إلى الجسر.

وقبل أن يصل إلى نهايته، انقطع أحد الحبال.

انهارت الأبواب الخلفية، واختفى إدريس وسط العتمة. مدت صفية يدها نحوه، لكنها لم تمسك سوى مفتاح بيته الأخير، كان قد ربطه في معصمه ثم ألقاه إليها.

بعد ذلك انطبق السواد على الحي.

اختفى حي الريحان.

اختفت غابة الكراسي وبحيرة الزيوت والتلال والبيوت المدفونة. ولم يبق فوق الأرض سوى قمة المئذنة، تشق بحرا من الأكياس السوداء كإصبع أخير يشير إلى السماء.

في المدينة العليا، انتهى الاحتفال بنجاح.

كانت الشوارع نظيفة إلى حد أن الناس استطاعوا رؤية وجوههم فوق حجارتها. وقف رئيس المجلس أمام الحشود وأعلن أن مدينة النقاء دخلت عصرا جديدا خاليا من النفايات.

وفي اللحظة التي رفع فيها يده لتحية الناس، سعل الفم النحاسي الكبير خلفه.



التفت الجميع.

سعل مرة ثانية، ثم قذف كيسا أسود عند قدمي الرئيس.

ساد الصمت.

انشق الكيس، وانفتح الصندوق الحديدي. تدفقت منه مئات المفاتيح فوق الساحة البيضاء، وظلت ترن فوق الحجارة حتى بدا صوتها كأجراس صغيرة.

انحنى الرئيس والتقط واحدا منها.

كان معلقا به لوح نحاسي كتب عليه:

«بيت إدريس - حي الريحان - الباب الثامن.»

سأل رئيس المجلس:

- لمن هذا المفتاح؟

لم يجبه أحد.

فتح الموظف خريطة المدينة، فلم يجد حي الريحان. بحث في سجل السكان، فلم يجد إدريس. ثم قال مطمئنا:

- لا بد أن المفتاح يعود إلى بيت قديم لم يعد موجودا.

ألقى به داخل الفم النحاسي وأدار المقبض.



لكن المفتاح لم يسقط.

قذفه الفم إلى الخارج.

حاول مرة ثانية، فعاد المفتاح.

ثم بدأت الأفواه النحاسية في جميع شوارع المدينة تسعل، واحدا بعد آخر. قذفت أوراقا متعفنة، وأحذية قديمة، وقوارير مكسورة، وملفات مختومة، وأكياسا تحمل أسماء أصحابها.

كانت عروق المدينة قد امتلأت.

ولم يعد تحتها حي يستقبل ما تريد نسيانه.

في تلك الليلة، نام سكان الطبقات العليا وسط أكياسهم للمرة الأولى. وقبل الفجر، سمعوا حفيفا عميقا يأتي من تحت الأرض.

لم يكن صوت حي يحتضر.

كان صوت حي كامل يتحرك تحت المدينة.

وفي الصباح، اكتشف حارس المجلس أن الساحة البيضاء هبطت مقدار إصبع.

وفي اليوم التالي، هبطت إصبعا آخر.

أما صفية، فجلست مع الناجين خارج السور، وأمسكت مفتاح الباب الثامن. كانت تعرف أن بيتها اختفى، وأن إدريس ربما اختفى معه، لكنها كانت تسمع في كل ليلة رنينا خافتا يصعد من جوف الأرض.

وحين سألها أحدهم إن كان حي الريحان قد مات، أغلقت يدها على المفتاح وقالت:

- لا... لقد صار أساسا للمدينة.

ولم يفهم سكان مدينة النقاء إلا بعد فوات الأوان أن الأحياء المنسية لا تختفي حين تمحى من الخرائط؛ إنها تهبط بصمت، تحمل فوقها المدن التي أنكرتها، وتنتظر اليوم الذي تتعب فيه من حملها.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا



مدرسة بلا نوافذ

كانت المدينة تخشى أن يرى الأطفال
المستقبل ... فيطالبوا بحقهم فيه

Produced by
RH©

لم تكن مدينة الطباشير بعيدة عن مدينة الطوابير، ولا عن السوق ذي الميزان المائل. كانت تقع خلف تلة رمادية، في مكان لا تصل إليه الحافلات إلا بعد أن يكبر ركابها عاما أو عامين.

ومن بعيد، بدت المدينة كأنها كتاب مفتوح غطاه الغبار. كانت جدرانها بيضاء باهتة، وأسقفها مائلة، وفي كل شارع لافتة كبيرة كتب عليها:

«التعليم نور»

لكن أحدا لم يكن يعرف أين يختبئ ذلك النور.



فمدارس مدينة الطباشير كلها بنيت بلا نوافذ.

كانت لها أبواب ضخمة وأقفال كثيرة، وأسوار عالية تمنع الأطفال من رؤية الخارج. أما النوافذ، فقد حذفت من مخططات المدارس منذ زمن بعيد بموجب مرسوم رسمي سمي:

«مرسوم حماية التلاميذ من التشتت»

وجاء في المرسوم أن العالم الخارجي مليء بأشياء قد تفسد تركيز الطفل: طائر يطير من دون إذن، شجرة تتحرك من غير جرس، سحابة لا تتبع جدولا زمنيا، وعامل يصلح آلة بيديه من غير أن يحفظ تعريفها في كتاب.

لكن أهل المدينة كانوا يروون حكاية أخرى.

قيل إن تلميذا وقف يوما أمام نافذة فصله، ونظر نحو التلة التي يقوم فوقها قصر مجلس التعليم، ثم سأل معلمه:

- لماذا تدخل الشمس إلى مكاتب المسؤولين ولا تدخل إلى مدرستنا؟

وفي الليلة نفسها، وصلت عربات البنائين إلى جميع المدارس، وحين استيقظت المدينة في الصباح كانت النوافذ قد تحولت إلى جدران.

ومنذ ذلك اليوم، صار السؤال أخطر من الجواب الخاطئ.

في آخر شارع الطباشير، وقفت مدرسة قديمة تحمل اسما عجيبا:

«مدرسة الأفق الواسع»

لم يكن فيها أفق ولا شيء واسع، باستثناء الشقوق الممتدة على جدرانها.

كان بابها منخفضا حتى إن الأطفال يضطرون إلى الانحناء كل صباح كي يدخلوه، وكأن أول درس يتلقونه هو أن يطأطئوا رؤوسهم قبل أن يتعلموا رفع أيديهم.

في كل قسم، كانت عشرات الأجساد الصغيرة تتزاحم فوق مقاعد أقل منها عددا. يجلس ثلاثة تلاميذ حيث لا يتسع المقعد إلا لاثنين، بينما يفترش الباقون الأرض أو يقفون قرب الجدار.

ومع ذلك، كانت التقارير الرسمية تؤكد أن لكل تلميذ مقعدا.

فمدير المدرسة، السيد كامل، لم يكن يعترف بالأشياء التي لا تظهر في الجداول. وكان يقول إن التلميذ الجالس على الأرض لا يعد بلا مقعد، ما دام اسمه مكتوبا في سجل يملك مقعدا مرسوما إلى جانبه.

وفي منتصف الساحة، انتصبت شجرة حديدية صنعتها البلدية خلال حملة سميت «المدرسة الخضراء». طلي جذعها بالبني، وأوراقها بالأخضر، وثبتت على قاعدة إسمنتية بجانب لوحة رخامية تحمل أسماء المسؤولين الذين حضروا حفل غرسها.

لم تكن الشجرة تحتاج إلى ماء، ولم تكن تمنح ظلا، لكنها ظهرت جميلة في الصور.

كان نور الدين تلميذا في الثانية عشرة، له عينان واسعتان لا تكفان عن البحث عن شيء لا يعرف اسمه.

لم يكن أكثر التلاميذ تفوقا، لأن ذاكرته كانت ترفض الاحتفاظ بالأجوبة التي لا تفهمها. كلما حفظ تعريفا، تسلل إلى رأسه سؤال فدفعه إلى الخارج. ولهذا كانت صفحاته تمتلئ بعلامات الاستفهام أكثر مما تمتلئ بالنقط.

كانت أخته الكبرى سلمى قد تخرجت قبل سنوات وحصلت على شهادة مزينة بخاتم أحمر كبير. علقتها الأسرة في صدر البيت، ثم انتظرت أن تفتح لها بابا.

لكن الشهادة لم تفتح شيئا.

وكانت سلمى تحملها كل صباح إلى مقهى الشهادات، وتجلس بين آلاف الخريجين تنتظر إعلانا عن وظيفة. وفي المساء تعود بها إلى البيت، تمسح عنها الغبار، ثم تعلقها من جديد.

لذلك، حين كتب معلم اللغة على السبورة:

«المدرسة هي الباب المؤدي إلى المستقبل»

رفع نور الدين يده وسأل:

- وإذا كانت المدرسة بابا إلى المستقبل، فلماذا عادت أختي منه إلى البيت؟

ساد صمت ثقيل.

خفض المعلم عينيه، وتظاهر بعض التلاميذ بالبحث في كتبهم. أما السؤال فظل معلقا في الهواء، يتحرك فوق الرؤوس كذبابة لا يعرف أحد كيف يطردها.



كان المعلم حليم رجلا طيبا أنهكه الوقوف طويلا أمام السبورة. حلم في شبابه أن يصبح عالم فلك، لكنه أمضى عشرين سنة يلقن الأطفال أسماء الكواكب داخل غرفة لم يروا منها السماء قط.

اقترب من نور الدين وقال بصوت خافت:

- بعض الأسئلة لا توجد في المقرر.

لكن باب القسم فتح قبل أن يعود الصمت، وظهر خلفه مساعد المدير. كان يحمل دفترا أسود يسجل فيه أسماء التلاميذ الذين يكثرون من استعمال كلمة «لماذا».

اقتيد نور الدين إلى أسفل المدرسة، نحو مكان لم يكن معظم التلاميذ يعرفون بوجوده:

قسم تصحيح الفضول.

كان القسم يقع في قبو رطب تفوح منه رائحة الورق القديم. وعلى رفوفه الطويلة، تراصت مئات القوارير الزجاجية، وفي داخل كل قارورة سؤال مطوي مثل حشرة محبوسة.

«لماذا نحفظ ولا نفهم؟»

«لماذا يدرس خمسون تلميذا في غرفة واحدة؟»

«لماذا تسقط الأمطار داخل قسمنا؟»

«لماذا تحتوي مدرسة التلة على مختبر، بينما نرسم نحن التجارب على السبورة؟»



«لماذا ينجح بعض التلاميذ قبل أن يدخلوا الامتحان؟»

كانت الأسئلة تضرب جدران القوارير بأجنحتها، لكنها لا تستطيع الخروج.

جلس خلف مكتب القبو موظف نحيل يدعى السيد سكون. كانت مهمته أن ينزع الأسئلة من رؤوس الأطفال ويضعها في القوارير قبل أن تنتشر بين زملائهم.

فتح سجلا ضخما وسأل نور الدين:

- ما السؤال الذي ارتكبته؟

أجابه نور الدين بأنه لا يتذكره جيدا.

قال الموظف:

- ممتاز. النسيان أول خطوة نحو التلميذ المثالي.

ثم أمره بالوقوف في زاوية القبو ونسخ العبارة الآتية مئة مرة:

«كل ما أحتاج إلى معرفته موجود في الكتاب.»

أمسك نور الدين قطعة طباشير وبدأ يكتب. وبعد السطر السابع والعشرين، لاحظ خيطا رفيعا من الضوء يتسلل من خلف خزانة صدئة.

اقترب منها ودفعها قليلا.



كان في الجدار شق صغير، لا يتجاوز عرض الإصبع. وضع عينه عليه فرأى للمرة الأولى العالم من داخل المدرسة.

رأى شجرة حقيقية تتمايل أغصانها مع الريح. رأى نجارا يقيس قطعة خشب، وميكانيكيا يفك محركا، وامرأة تزرع شتلة صغيرة، وأطفالا يركضون خلف كرة صنعت قوانينها بنفسها.

وفي أعلى التلة، شاهد مدرسة أخرى تحيط بها الحدائق والنوافذ الزجاجية. كان عدد التلاميذ في أقسامها قليلا، ولكل واحد منهم حاسوب وكتاب ومقعد كامل. وفي مختبرها، كان الأطفال يجربون الأشياء التي يحفظها تلاميذ مدرسة الأفق الواسع عن ظهر قلب.

فهم نور الدين يومها أن المدينة لم تكن تملك مدرسة واحدة بلا نوافذ، بل كانت تملك نوعين من المدارس:

مدارس يرى منها الأطفال العالم، ومدارس لا يسمح لأطفالها حتى برؤيته.

وفجأة، شعر بأن القوارير من حوله بدأت ترتجف.

كان الضوء قد وصل إلى الأسئلة.

في صباح اليوم التالي، دخل نور الدين فصله وهو يخفي في جيبه قطعة الطباشير التي أخذها من القبو.

كان المعلم حليم يشرح درسا عن النبات، ويكتب على السبورة:

«يحتاج النبات إلى الضوء كي ينمو.»

نظر التلاميذ إلى الجملة، ثم إلى الجدران المغلقة من حولهم.

أخرج نور الدين قطعة الطباشير، واتجه إلى آخر القسم. رسم على الجدار مستطيلا كبيرا، ثم أضاف إليه إطارا ومقبضا صغيرا.

ضحك بعض التلاميذ، لكن ضحكاتهم توقفت حين أدار نور الدين المقبض.

انفتح الجدار.

اندفعت إلى القسم ريح باردة تحمل رائحة التراب والشجر، ودخل شعاع من الشمس ظل يتقدم فوق الأرض حتى بلغ السبورة.

تراجع الأطفال في البداية، فقد آلم الضوء أعينهم التي اعتادت العتمة. ثم اقتربوا من النافذة ببطء، كأنهم يقتربون من سر ظل ممنوعا عنهم لسنوات.

وللمرة الأولى، شاهدوا لون السماء من دون أن يطلب منهم أحد حفظ تعريفه.

كشف الضوء أشياء كثيرة.

كشف الرطوبة التي أخفاها الطلاء، والشقوق التي غطتها الشعارات، والكتب الناقصة، والمقاعد المكسورة، والغبار المتراكم فوق خريطة للعالم لم تفتح منذ أعوام.

حتى الشجرة الحديدية في الساحة بدت تحت الشمس أكثر موتا مما كانت تبدو في العتمة.

وقف المعلم حليم أمام النافذة طويلا. رفع رأسه نحو السماء، فرأى كوكبا باهتا لم يختف بعد في ضوء الصباح.

نسي للحظة الكتاب والمقرر وجدول الحصص، وبدأ يشرح للأطفال كيف تتحرك الأرض حول الشمس. لم يطلب منهم حفظ شيء، بل جعلهم يراقبون اتجاه الظلال ويرسمونها على الأرض.

وعندما سأله تلميذ عن أمر لم يعرف إجابته، صمت قليلا ثم قال:

- لا أعرف... لكن يمكننا أن نبحث معا.

كانت تلك أول مرة يسمع فيها التلاميذ معلما يعترف بأنه لا يعرف.

ولم تسقط السماء.

في القبو، بدأت قوارير الأسئلة تهتز بعنف. تمدد الضوء داخل الشقوق، وانفجرت قارورة، ثم ثانية وثالثة.

تحررت الأسئلة وصعدت عبر الدرج والممرات. كانت تطير فوق رؤوس الأطفال مثل أسراب من الطيور السوداء، ثم تحط على الكتب والسبورات.

ظهرت كلمات «كيف؟»«و»لماذا؟»«و»ماذا لو؟» في كل مكان.

بدأ التلاميذ يفتحون كتبهم بطريقة مختلفة. لم يعودوا يبحثون فقط عن الأجوبة، بل صاروا يكتبون أسئلتهم في الهوامش. امتلأت السبورات بالاحتمالات، وتحول ضجيج الأقسام من ترديد جماعي للكلمات إلى أصوات تناقش وتجرب وتخطئ.

لكن اليوم نفسه كان موعد الزيارة السنوية لكبير المفتشين.



وصل المفتش عند الظهر في سيارة سوداء لا نوافذ لها. نزل منها مرتديا معطفا رماديا، وخلفه ثلاثة مساعدين يحملون أجهزة غريبة:

مقياس الصمت، وميزان النقط، ومسطرة توحيد العقول.

استقبله المدير كامل عند الباب وهو يخفي ارتباكه بابتسامة عريضة.

بدأ المفتش جولته كعادته. لم يسأل طفلا عما فهمه، ولم ينظر إلى الكتب أو الجدران. كان يقيس مقدار الصمت في كل قسم، ويعد الأيدي المرفوعة في اللحظة نفسها، ويتأكد من أن الإجابات متشابهة ولا تحتوي على كلمات لم ترد في المقرر.

لكن حين اقترب من قسم نور الدين، سمع أصواتا مختلفة.

فتح الباب فرأى الشمس داخل المدرسة.

تجمد في مكانه.

كان بعض الأطفال يقيسون ظلالهم، وبعضهم يفحص ورقة شجرة، بينما رسم آخرون خريطة جديدة للمدينة أضافوا إليها الشوارع التي لم تكن موجودة في الكتاب.

صاح المفتش:

- من سمح للواقع بالدخول إلى القسم؟

أسرع المدير كامل نحو النافذة، محاولا تغطيتها بجسده.



- إنها مجرد وسيلة إيضاح مؤقتة يا سيدي.

اقترب المفتش من الجدار، وتفحص الضوء كما لو كان بقعة حبر على وثيقة رسمية.

قال ببرود:

- المدرسة لا تحتاج إلى رؤية العالم. يكفي أن يصدق العالم تقارير المدرسة.

أمر بإحضار الإسمنت، وتقدم العمال لإغلاق النافذة.

نظر نور الدين إلى المعلم حليم. كان الرجل واقفا بين خوفه القديم والسماء التي رآها من جديد. ثم تناول قطعة طباشير، واتجه نحو الجدار المقابل.

ورسم نافذة ثانية.

تبعه تلميذ ورسم ثالثة، ثم نهضت طفلة ورسمت رابعة. وفي لحظات، امتلأت جدران القسم بعشرات النوافذ المرسومة.

وكلما اكتمل إطار، انفتح الجدار.

دخلت الشمس من الجهات كلها. اندفعت الريح في الممرات، فرفعت أوراق التقارير وألقتها في الساحة. اختلطت الجداول ببعضها، وتبعثرت الأرقام التي ظلت سنوات تثبت أن كل شيء بخير.

حاول المفتش إغلاق نافذة، فانفتحت خلفه اثنتان.



حاول كسر قطعة الطباشير، فتفتت بين يديه إلى عشرات القطع الصغيرة، التقطها الأطفال وركضوا بها نحو بقية الأقسام.

في ذلك اليوم، حملت الريح غبار الطباشير عبر المدينة. دخل من شقوق المدارس، واستقر على جدرانها. وفي كل مكان، بدأ طفل يرسم مستطيلا ومقبضا صغيرا.

وقبل غروب الشمس، صار لمدينة الطباشير ألف نافذة.

اجتمع مجلس التعليم في جلسة طارئة استمرت ثلاثة أيام. وفي نهايتها أصدر بيانا أعلن فيه أن ما وقع لم يكن تمردا، بل نجاحا غير مسبوق لـ«البرنامج الوطني للتهوية التربوية».

ووعد المجلس ببناء نافذة نموذجية في كل مدرسة قبل حلول عام بعيد لم يولد تلاميذه بعد. كما أقام حفلا كبيرا، وقص أحد المسؤولين شريطا أحمر أمام نافذة وحيدة شيدت في مكتب المدير.

لكن الأطفال لم ينتظروا البرنامج.

صاروا يرسمون نوافذهم بأنفسهم.

بعض النوافذ كانت تطل على مكتبات، وبعضها على ورشات ومختبرات وحقول. ونافذة نور الدين ظلت تطل على مدرسة التلة، حتى لا ينسى أحد أن السماء واحدة، لكن الطريق إليها لم يكن موزعا بالعدل.

لم تتغير المدينة في ليلة واحدة.

أغلقت بعض النوافذ، ووضعت الستائر فوق أخرى. وعاد بعض المفتشين يحملون مساطر أطول وأجهزة أحدث لقياس الصمت. لكن الأسئلة التي خرجت من القوارير لم تعد تقبل العودة إليها.

فالسؤال، إذا رأى الضوء مرة، لا يستطيع العيش في العتمة من جديد.

ومنذ ذلك الحين، كلما رسم طفل نافذة على جدار، كان الجدار يرتجف قليلا، كأنه يتذكر الحقيقة التي حاولوا دفنها خلف الإسمنت.

فقد أدرك أهل مدينة الطباشير أخيرا أن مدرستهم لم تكن بلا نوافذ لأن البنائين نسوها، ولا لأن الضوء يشتت التلاميذ.

كانت بلا نوافذ لأن المدينة كانت تخشى أن يرى الأطفال المستقبل...

فيطالبوا بحقهم فيه.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا

غرفة تأكل نصف الراتب



حين يصبح السقف أغلى من الإنسان

لايعود البيت مأوى ... بل يصير فما

Produced by

RH©

لم تكن مدينة المفاتيح بعيدة عن مدينة الطوابير، ولا عن مدينة الأيام التي كانت حافلاتها تصل أمس. كانت تقع بين راتب يصل متعبا في آخر الشهر، ومالك بيت ينتظره واقفا في أوله.

وكانت مدينة عجيبة، تبنى فيها البيوت أسرع مما يجد الناس مكانا يسكنون فيه. ترتفع العمارات كل صباح طابقا جديدا، وتتكاثر النوافذ على واجهاتها، لكن معظمها يبقى مظلما، كأن المدينة تبني مساكن للأشباح، بينما ينام أهلها متكدسين تحت أسقف ضيقة.

لم يكن الناس هناك يسألون عن مساحة الغرفة، بل عن مقدار ما تأكله من الراتب.



فالغرف في مدينة المفاتيح لم تكن جمادات صامتة. كانت لها أفواه مخبأة خلف الطلاء، تستيقظ ليلة تسليم الأجور، وتظل طوال الشهر تستمع إلى وقع النقود في الجيوب.

كلما اقترب آخر الشهر، أخذت الجدران تئن من الجوع، وبدأت الأبواب تشم رواتب العائدين من أعمالهم.

وكان أشدها جوعا غرفة صغيرة في الطابق السابع من عمارة تحمل، على سبيل السخرية، اسم دار السعة.

في تلك الغرفة عاش يونس مع زوجته سلمى وطفلتهما نور.

كان يونس يعمل في مصنع كبير للنوافذ. يقضي يومه في تقطيع الزجاج وتلميعه وتركيبه داخل إطارات ذهبية، ثم يشاهد الشاحنات تحمله نحو العمارات الجديدة التي لا يسكنها أحد.

كان يعرف كيف يدخل الضوء إلى البيوت، لكنه لم يكن يملك نافذة واحدة في غرفته.

أما سلمى، فكانت تخيط ملابس الجيران قرب مصباح أصفر ضعيف، فيما كانت نور تجلس في الركن الوحيد الذي لم تصل إليه الرطوبة، وترسم بيوتا واسعة لها حدائق ونوافذ كثيرة.

عندما استأجر يونس الغرفة أول مرة، كانت تتسع لأربع خطوات من الباب إلى الجدار. وبعد الزيادة الأولى في الكراء، تقدم الجدار خطوة. وبعد الزيادة الثانية، انخفض السقف قليلا. وفي السنة الثالثة، اختفى المكان الذي كانوا يضعون فيه مائدة الطعام.

لم يسأل يونس كيف تحركت الجدران، فقد كان عقد الكراء واضحا:

«للغرفة الحق في مراجعة جوعها كلما ارتفعت أسعار المدينة».

وفي مساء تسليم الراتب، عاد يونس يحمل ظرفا بنيا صغيرا. وما إن أغلق الباب حتى اهتزت الغرفة، وانشق الطلاء فوق أحد الجدران، وظهر فم أسود طويل تحيط به أسنان من المسامير.

اقترب الفم من الظرف، وابتلع نصف ما فيه، ثم أغلق نفسه وعاد جدارا عاديا.

عد يونس ما تبقى. قسمه بين الطعام والماء والكهرباء وثمن الطريق إلى المصنع. لم يبق في يده إلا القليل.

قالت نور وهي تنظر إلى الجدار:

- لماذا تأكل غرفتنا نقودنا يا أبي؟

أجاب يونس:

- لأنها جائعة.

فكرت الطفلة قليلا، ثم سألته:

- ولماذا لا تأكل الغرف الفارغة؟

لم يجد يونس جوابا.

في الشهر التالي، قرر أن يخدع الغرفة. أخفى راتبه داخل حذائه، ودخل بخطوات هادئة، متظاهرا بأنه لم يتقاض شيئا.

ظلت الغرفة ساكنة للحظات، ثم تحركت أرضيتها تحت قدميه، وانتشر فيها صوت شم عميق. امتد شق أسود من الجدار، والتهم الحذاء بما فيه.

جلس يونس حافي القدمين، يراقب الجدار وهو يمضغ راتبه.

في الصباح، أخبره مالك العمارة أن الغرفة ستحتاج إلى زيادة جديدة.

قال يونس:

- لكنها صارت أصغر.

أجابه الرجل وهو يداعب حلقة مفاتيحه:

- لهذا السبب ارتفع ثمنها. الغرف الصغيرة أصبحت نادرة.

وبدلا من الاعتراض، بدأ يونس يعمل ساعات إضافية. صار يدخل المصنع قبل شروق الشمس ولا يغادره إلا بعد حلول الظلام.

وحين حصل على زيادة صغيرة في أجره، شعر بشيء من الفرح. اشترى لابنته علبة ألوان، وحمل إلى البيت كيسا من الفاكهة.

لكن الغرفة كانت قد سمعت خبر الزيادة.



في ليلة الراتب، فتحت فمها على اتساعه، وأكلت نصف الأجر والزيادة كاملة.

ثم أخرجت تجشؤا باردا أطفأ المصباح.

قالت سلمى:

- كلما عملنا أكثر، أكلت أكثر.

نظر يونس إلى يديه الممتلئتين بجروح الزجاج، وفهم أنه صار يصنع النوافذ لبيوت لا يقدر على دخولها، ويقضي عمره في العمل ليدفع ثمن غرفة لا يجد الوقت ليعيش فيها.

كان يخرج وابنته نائمة، ويعود وهي نائمة. ولم يعد يراها إلا في الرسومات التي تتركها فوق وسادته.

امتلك مفتاح الغرفة، لكنه لم يعد يمتلك وقتا ليستعمله.

ذات صباح، ذهب يونس إلى سوق السقوف بحثا عن مسكن أرخص.

كان السوق يمتد تحت قبة ضخمة مصنوعة من عقود الكراء القديمة. وقف السماسرة على منصات عالية، يرتدون قبعات تشبه أسطح المنازل، وتتدلى من خصورهم سلاسل طويلة من المفاتيح.

وعلى جانبي السوق، عرضت الغرف داخل أقفاص زجاجية.

اقترب يونس من القفص الأول.

قال السمسار:

- غرفة هادئة لا تزعجها أصوات الشارع.



نظر يونس داخلها، فلم يجد نافذة ولا بابا.

سأله:

- وكيف أدخل إليها؟

أجابه السمسار:

- الدخول خدمة إضافية.

وفي القفص الثاني، وجد قبوا رطبا تتدلى من سقفه قطرات الماء.

قال صاحبه:

- مسكن عائلي يحتفظ ببرودته طوال السنة.

أما القفص الثالث، فلم يكن سوى سطح مكشوف تحيط به ثلاثة أحجار.

صرخ السمسار بحماس:

- فرصة نادرة لمحبي الهواء والسماء!

وجد يونس غرفة مناسبة في طرف السوق، لكنها كانت تؤجر بالليل فقط، لأن عائلة أخرى تستعملها في النهار. وفي غرفة ثانية، كانت النافذة مشتركة بين أربع أسر، تفتح لكل واحدة منها ساعة واحدة كل يوم ثلاثاء.

ثم رأى شقة جميلة فيها غرفتان وشرفة صغيرة.

للمرة الأولى، تخيل نور وهي تجلس أمام نافذة حقيقية.

سأل عن ثمنها.

أخرج السمسار مقصا فضيا، وقاس راتب يونس من أوله إلى آخره، ثم قطعه إلى نصفين وقال:

- هذا ثمن الباب فقط.

- والداخل؟

- يحتاج إلى راتب آخر.

- ليس عندي راتب آخر.

ابتسم السمسار:

- يمكنك أن تستأجر راتبا من بنك الجدران، ثم تقضي بقية حياتك في سداده.

خرج يونس من السوق، وقد بدا له أن المدينة كلها تحولت إلى باب كبير لا يفتح إلا لمن يملك بيتا من قبل.

مرت الشهور، وازدادت الغرفة جوعا.

في البداية أكلت نصف الراتب، ثم بدأت تلتهم أشياء أخرى.

ابتلعت كرسيا بحجة أنه يشغل مساحة إضافية. وأكلت جزءا من فراش نور لأن الغرفة، وفق رسالة علقها المالك على الباب، لم تعد مرخصة لاستقبال ثلاثة أحلام في وقت واحد.

وحين اشترت سلمى آلة خياطة مستعملة لتساعد زوجها، ارتفع الكراء مرة أخرى.

قال مالك العمارة:

- وجود آلة داخل الغرفة يعني أن وضعكم تحسن.

قالت سلمى:

- اشتريناها لأن وضعنا سيئ.

أجابها:

- إذن أنتم في حاجة شديدة إلى الغرفة، والحاجة ترفع الثمن.

ثم أدار ظهره وصعد السلم، فيما أخذت المفاتيح المتدلية من حزامه تضحك بصوت معدني.

في تلك الليلة، تمددت سلمى ونور فوق نصف الفراش، بينما جلس يونس عند الباب. ومن خلف الجدران، سمع أصوات الغرف الأخرى وهي تمضغ.

غرفة في الطابق السادس كانت تلتهم دواء رجل مسن.

وأخرى في الخامس ابتلعت مهر شابة كانت تستعد للزواج.



وفي الطابق الرابع، أكلت غرفة كتب طالب حتى لم يبق منها إلا الأغلفة.

كانت العمارة كلها وحشا ضخما، لكل شقة فيه فم، ولكل فم أنبوب خفي يحمل ما يأكله إلى مكان مجهول.

ذات ليلة، رسمت نور بيتا كبيرا بلون أزرق. جعلت له نافذتين وشجرة وبابا مفتوحا.

علقت الرسم على الجدار وقالت:

- هذا بيتنا عندما تكبر النوافذ ويصغر الكراء.

اهتز الجدار فجأة، وانفتح الفم الأسود محاولا ابتلاع الورقة.

صرخت نور، وأمسك يونس بالرسم قبل أن يختفي. جذب الورقة بقوة، فتساقط جزء من الطلاء، وظهر خلفه أنبوب حديدي غليظ ينبض مثل عرق في جسد عملاق.

وضع يونس أذنه عليه، فسمع داخله خشخشة النقود، وبكاء الأطفال، وأنين الأسرة، وساعات العمر التي قضتها العائلات في العمل.

خرج إلى ممر العمارة، فوجد الأنابيب نفسها تمتد خلف كل غرفة. نزل السلالم متتبعا إياها، ثم خرج إلى الشارع.

كانت الأنابيب تزحف تحت الأرصفة، وتتجمع مع أنابيب العمارات الأخرى. وفي ضوء القمر، بدت المدينة كجسد هائل، تسحب عروقه أرزاق الناس من الأحياء الفقيرة نحو التلال البعيدة.

تبع يونس الأنبوب حتى وصل إلى أعلى المدينة، حيث وقف بناء أسود يعرف باسم قصر الأقفال.



كان القصر محاطا بآلاف المنازل الفارغة. شرفاتها واسعة، وحدائقها خضراء، ونوافذها مغلقة منذ سنوات. لم يسمع يونس فيها صوت طفل أو وقع قدم، بل سمع البيوت نفسها تتنفس بحزن خلف الأبواب.

دخل القصر من فتحة يمر عبرها أكبر الأنابيب.

وفي الداخل، وجد قاعة شاسعة مفروشة بعقود الكراء. تدلت من سقفها ثريا مصنوعة من آلاف المفاتيح، وتراكمت في أركانها الرواتب والكراسي والأدوية والكتب وألعاب الأطفال.

وفي وسط القاعة جلس جامع المفاتيح.

كان رجلا نحيفا يرتدي معطفا طويلا، وعلى أصابعه خواتم صغيرة على شكل بيوت. لم يحمل المفاتيح، بل كانت المفاتيح هي التي تحمله فوق كرسي مرتفع.

سأله يونس:

- لماذا جعلتم الغرف تأكلنا؟

أجاب جامع المفاتيح بهدوء:

- الغرف لا تأكل أحدا من تلقاء نفسها. نحن من علمها الجوع.

وأشار إلى خريطة المدينة المعلقة خلفه.

كان نصف بيوتها ملونا بالأسود.



قال:

- حين تمتلئ البيوت بالناس، تهدأ الأسعار. وحين نغلق نصفها، يخاف سكان النصف الآخر من الشارع، فتأكل غرفهم أكثر.

- ولماذا تتركون كل هذه المنازل فارغة؟

ابتسم جامع المفاتيح وقال:

- لأن البيت المسكون يؤوي عائلة واحدة، أما البيت الفارغ فيستطيع أن يؤوي سعرا يرتفع كل يوم.

ثم عرض على يونس مفتاحا فضيا.

- اعمل عندي في تركيب الأفواه داخل الجدران، وسأمنحك غرفة لا تأكل إلا ربع راتبك.

نظر يونس إلى المفتاح، ثم إلى أكوام الأشياء التي ابتلعتها الغرف. رأى بينها حذاءه القديم، وعلبة ألوان نور، وكتاب الطالب، ودواء الرجل المسن.

فأعاد المفتاح إلى الطاولة وقال:

- لا أريد غرفة أقل جوعا. أريد بيتا لا يعتبرني طعاما.

ضحك جامع المفاتيح، فضحكت الثريا كلها معه.

أخرج يونس رسمة ابنته ووضعها فوق أكبر عقد في القاعة.

وما إن لامست الورقة الحبر حتى بدأت النافذتان المرسومتان تضيئان. تسلل منهما ضوء أزرق، انتشر على العقود والأنابيب، ثم خرج من القصر نحو المنازل المغلقة.

ارتجفت الأبواب.

تنفست البيوت الفارغة للمرة الأولى منذ سنوات، وبدأت تفتح نوافذها من تلقاء نفسها. سعلت الغرف غبارها، وألقت المفاتيح من شرفاتها إلى الشوارع.

وفي الأحياء البعيدة، استيقظ الناس على توقف أصوات المضغ داخل جدرانهم. تتبعوا الأنابيب كما فعل يونس، وصعدوا نحو التلة يحملون المصابيح والرسومات والكراسي المكسورة والأشياء التي نجت من أفواه الغرف.

وصلوا عند الفجر، ووقفوا أمام آلاف البيوت الخالية.

لم يقتحموا الأبواب، ولم يكسروا الأقفال. وقفوا فقط في صمت، حتى ظهرت المفارقة التي حاولت المدينة إخفاءها طويلا:

آلاف البشر بلا سكن، أمام آلاف المساكن بلا بشر.

صعد منادي المدينة فوق نافورة المفاتيح، وقرأ بيانا رسميا:

- لا توجد أزمة سكن في مدينة المفاتيح. المشكلة أن رواتب المواطنين قصيرة، وأحلامهم أكبر من الغرف المتاحة.

لكن هذه المرة، لم يصفق أحد.

رفع يونس رسمة نور عاليا، فبدأت النوافذ المغلقة تضيء واحدة بعد أخرى، كأن البيوت تعلن أنها خلقت لتسكن، لا لتحبس حتى يرتفع ثمنها.

أمر جامع المفاتيح حراسه بإغلاقها من جديد. أعادوا الأقفال، وغلظوا الأبواب، وقطعوا بعض الأنابيب الظاهرة.

لكنهم لم يستطيعوا إعادة السر إلى الجدران.

لقد عرف الناس أن الغرف لم تولد جائعة، وأن وراء كل فم يبتلع رواتبهم يدا تجمع المفاتيح وتقرر من يسكن، ومن ينتظر، ومن يقضي عمره يدفع ثمن زاوية لا تتسع لأحلامه.

لم تتغير مدينة المفاتيح في ليلة واحدة.

ظلت البيوت الفارغة واقفة فوق التلال، وبقي كثير من الناس في غرفهم الضيقة. وفي الشهر التالي، فتح الجدار فمه من جديد أمام يونس.

ابتلع نصف الراتب، لكنه وجد هذه المرة ورقة صغيرة بين النقود، كتب عليها:

«هذا ليس ثمن غرفة... هذا نصف عمري».

ومنذ ذلك اليوم، صار كل ساكن يضع الرسالة نفسها داخل فم غرفته.



وامتلأ قصر الأقفال بآلاف الأوراق التي لم يستطع جامع المفاتيح عدها أو حرقها، لأن الكلمات كانت تقفز من الرماد وتلتصق بالنوافذ.

أما نور، فظلت ترسم بيتها الأزرق: نافذتان، شجرة، وباب مفتوح لا يحرسه سمسار ولا يخاف من ضحكات الأطفال.

ويقال إن مدينة المفاتيح ليست بعيدة عن مدننا. يمكن العثور عليها في كل مكان يصل فيه الكراء قبل الراتب، ويكبر فيه ثمن البيت كلما صغرت أحلام ساكنيه.

فهناك، لا يسكن الناس الغرف حقا...

الغرف هي التي تسكن رواتبهم.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا



طبيب القرية الذي مرض من الإنتظار

حين يصبح الإنتظار أخطر من المرض

Produced by

RH©

مدينة النبض ليست بعيدة عن مدننا، وإن كانت الخرائط لا تذكرها.

كان المسافرون يقولون إنهم رأوها ذات مساء، ممددة بين جبلين كجسد هائل غلبه التعب. شوارعها شرايين مرصوفة بالحجارة الحمراء، جسورها عظام بيضاء، وفوق أعلى ربوة في وسطها ينتصب قصر العافية، بناء ضخم على هيئة قلب، تحيط به مائة نافذة لا تطل إلا إلى الداخل.

في كل صباح، يدق القصر دقة عظيمة تهتز لها أبواب المدينة، ثم يرسل نبضه عبر الشوارع إلى الأحياء والقرى.



كانت الأحياء القريبة تستقبل النبض أولا، قويا ودافئا. تضيء مستشفياتها، تمتلئ خزائنها بالأدوية، وتدور فوق أسطحها عربات إسعاف بأجنحة حمراء. وكان بعض سكانها يجمعون ما يفيض عن حاجتهم من النبض في قوارير بلورية، يضعونها فوق الموائد للزينة.

أما الأحياء البعيدة، فكان يصلها نبض ضعيف ومتعب، بعد أن يكون قد عبر ألف باب وألف مكتب. وكلما ابتعدت قرية عن قصر العافية، بهت لون شوارعها، حتى تبلغ قرية آخر النبض، عند الطرف المنسي من المدينة، حيث لا يشعر الناس بدقة القصر إلا مرة كل عدة أيام.

كان أهل القرية يضعون آذانهم على الأرض، وحين يسمعون ارتعاشة خفيفة تحت التراب، يخرجون إلى النوافذ قائلين:

- وصل النبض.

ثم يختفي قبل أن يتموا العبارة.

في آخر القرية وقف مستوصف صغير بسقف مائل وباب لا ينغلق. وفوق بابه لافتة تآكلت حروفها، حتى لم يبق منها سوى كلمتين:

«في انتظار...»

لم يعد أحد يتذكر بقية الجملة.



في ذلك المستوصف كان يعمل الدكتور أيوب، الطبيب الوحيد في قرية آخر النبض والقرى السبع التي تحيط بها.

وصل إليها شابا، يحمل حقيبة جلدية ومعطفا أبيض ورسالة تكليف تقول إنه سيبقى هناك مؤقتا، إلى أن يصل طبيب آخر. مرت ثمانية عشر سنة، شاخ خلالها الحبر، واصفرت الرسالة، ولم يصل الطبيب الآخر.

كان أيوب طبيبا غريبا؛ لا يحتاج إلى أجهزة كثيرة ليعرف موضع الألم. كان يضع أذنه على صدر المريض، فيسمع المرض وهو يتحرك في الداخل.

يسمع الحمى وهي تكسر الحطب داخل العظام، ويسمع الرئتين تستغيثان من قاع بئر، ويسمع القلب وهو يطرق أضلاع صاحبه طالبا الخروج. وإذا وضع يده على رأس طفل مريض، سمع أحلامه الصغيرة ترتجف من البرد.

غير أن معرفة المرض لم تكن تعني القدرة على علاجه.

كانت خزائن المستوصف فارغة، إلا من ضمادات قديمة، وزجاجات فقدت أسماءها، ومقص صدئ يفتحه أيوب بحذر كأنه يوقظ حيوانا نائما.

وحين نفدت خيوط الجراحة، بدأ يقتطع خيوطا رفيعة من أسفل معطفه الأبيض ليخيط بها جراح الناس. وكلما أنقذ مريضا، قصر معطفه قليلا.

وبعد سنوات، لم يعد المعطف يبلغ ركبتيه.

كان يحتفظ بأنفاس المرضى الخطرين داخل قوارير زجاجية. يفتح القارورة قرب فم المريض عندما يضعف تنفسه، فتدخل إليه نفخة صغيرة تمنحه بعض الوقت. أما دقات القلوب المتعبة، فكان يلفها في قطع من القطن ويضعها داخل صندوق خشبي، حتى لا تضيع قبل وصول العلاج.

كل أسبوع كان يكتب إلى قصر العافية:

«قرية آخر النبض تحتاج إلى دواء.»

«قرية آخر النبض تحتاج إلى ممرضة.»

«قرية آخر النبض تحتاج إلى عربة إسعاف.»

ثم يطوي الطلب على هيئة طائر ورقي ويطلقه من نافذة المستوصف.

كانت الطيور تحلق فوق الشرايين الحمراء حتى تبلغ القصر، ثم تعود بعد أيام وقد أثقل أجنحتها ختم أسود يحمل العبارة نفسها:

«طلبكم قيد الانتظار.»

جمع أيوب الطيور العائدة في زاوية المستوصف. ومع مرور السنوات، كبرت الكومة حتى صارت جدارا يفصل غرفة الفحص عن غرفة العلاج.

وذات سنة، أعلن حاكم مدينة النبض أن المرض اختفى نهائيا.

وقف أمام مرآة العافية الكبرى في ساحة القصر، وكانت مرآة سحرية لا تعكس إلا الأشخاص القريبين منها. ولأن الذين استطاعوا الوصول إلى الساحة كانوا من سكان الأحياء الأولى، ظهر الجميع في المرآة بوجوه ممتلئة وثياب نظيفة.

نظر الحاكم إلى الانعكاس، ثم قال لوزير العافية:

- لا أرى مريضا واحدا.

أجابه الوزير:

- لأن المدينة شفيت يا مولاي.

وفي اليوم التالي، خرجت الأبواق تعلن أن مدينة النبض أصبحت أصح مدينة في العالم.

وصل الخبر إلى قرية آخر النبض مع طائر ورقي ضل طريقه. قرأه أيوب بينما كان أمامه سبعون مريضا، ثم رفع عينيه نحو الصف الممتد خارج المستوصف.

لم يضحك أحد.

في ذلك الشتاء، جاء إلى أيوب طفل اسمه سراج. كان صغيرا ونحيلا، وفي صدره رئتان تشبهان عصفورين مبتلين لم يعودا قادرين على تحريك أجنحتهما.

وضع أيوب أذنه على صدره، فسمع صوتا ضعيفا يقول:



- الهواء بعيد.

احتاج سراج إلى جهاز موجود في قصر العافية. أرسل أيوب طائرا أحمر كتب على جناحه: «عاجل».

عاد الطائر بعد ثلاثة أيام، يحمل موعدا بعد سبعة أقمار.

وضعت أم سراج يدها على فمها، وسألت:

- وهل يستطيع صدره أن ينتظر سبعة أقمار؟

لم يجبها أيوب.

أخرج قارورة زجاجية صغيرة، وحبس فيها نفسا من أنفاسه، ثم وضعها قرب فم الطفل. تحرك العصفوران داخل صدره قليلا، وفتح سراج عينيه.

قال أيوب:

- هذا يكفيه أياما، لا أقمارا.

ومنذ تلك الليلة، بدأ مرض جديد ينتشر في القرية.

لم يكن يصيب الرأس أو المعدة، ولم تكن له حمى أو بقع على الجلد. كان يبدأ بثقل في القدمين، ثم يتسلل إلى الظهر، حتى يعجز المصاب عن الوقوف.

كان أول من أصيب به رجل عجوز ظل ينتظر موعدا لعلاج عينيه سنوات طويلة. جلس أمام المستوصف منذ الصباح، وعند الغروب تحولت قدماه إلى خشب، ثم استطال ظهره، وانبسطت ذراعاه.



وفي صباح اليوم التالي، وجد أهل القرية مكانه كرسيا خشبيا.

ظنوا أن العجوز عاد إلى بيته وترك الكرسي خلفه، إلى أن سمعوا من داخله صوته الخافت يقول:

- هل جاء دوري؟

بعده تحولت امرأة كانت تنتظر عملية في قلبها إلى مقعد طويل. ثم تحول شاب ينتظر دواءه إلى كرسي بثلاث أرجل. وفي أقل من شهر، امتلأت ساحة المستوصف بالكراسي.

فحص أيوب أحدها. وضع السماعة على خشبه، فلم يسمع دقات قلب، بل سمع صوت ساعة تكرر:

انتظر... انتظر... انتظر...

أدرك أن المرض لا يعيش في أجساد الناس، بل في الوقت المتراكم فوقها. كان الانتظار قد أصبح مادة ثقيلة، تدخل العظام وتحول الإنسان إلى الشيء الذي جلس فوقه طويلا.

كتب أيوب طلبا أخيرا إلى قصر العافية. هذه المرة لم يجد ورقا، فطوى رسالة تكليفه القديمة، تلك التي وعدته بوصول طبيب آخر، وصنع منها طائرا كبيرا.

كتب على جناحه:

«الانتظار يحول أهل القرية إلى كراس.»

طار الطائر نحو القصر، ثم عاد في المساء يحمل رقما طويلا التف حول المستوصف سبع مرات.

لم يكن موعدا، بل رقم انتظار.

في الليلة نفسها، انطفأ العصفور الأول داخل صدر سراج، وكاد الثاني يسقط.

لم ينتظر أيوب الصباح.

حمل الطفل وقوارير أنفاسه، وخرج يبحث عن عربة الإسعاف الوحيدة في القرية. كانت عربة حمراء قديمة ذات ساق حديدية واحدة؛ أما ساقها الثانية فقد أُرسلت للإصلاح قبل أعوام ولم تعد.

ربط أيوب سراج داخلها، ثم أمرها بالانطلاق.

كانت العربة تقفز فوق الشريان المحطم قفزة بعد أخرى. وكلما اقتربت من وسط المدينة، التوى الطريق أمامها وعاد بها إلى المكان نفسه. كان الطريق قد تعلم الانتظار هو الآخر، فلم يعد يعرف كيف يصل.

أخرج أيوب دقة من قلبه ووضعها في صدر العربة، فقفزت قفزة كبيرة. ثم أعطاها دقة ثانية، فقفزت فوق واد من المواعيد المؤجلة.

ومع كل دقة يمنحها لها، كان وجهه يشحب أكثر.

وصل إلى قصر العافية عند الفجر، ولم يبق في قلبه إلا عدد قليل من الدقات.

كان باب القصر مرتفعا على شكل فم أبيض، وأمامه حارس يحمل ساعة رملية.

نظر الحارس إلى الطفل وسأل:

- هل يستطيع الانتظار؟

قال أيوب:

- لو كان يستطيع، لما جئت به.

قلب الحارس الساعة الرملية وقال:

- الجميع يقولون ذلك.

دخل أيوب القصر فوجد ممرات لا تنتهي، وأبوابا تدور كلما اقترب منها المرضى. خلف الباب الأول طبيب يعالج النصف الأيسر من الجسد فقط. وخلف الباب الثاني طبيب لا يستقبل إلا الأمراض التي تبدأ أسماؤها بحرف معين. أما الباب الثالث فكان يؤدي إلى الباب الأول.

في القاعة الكبرى، جلست آلاف الكراسي في صفوف صامتة.

اقترب أيوب من أحدها، فرأى اسم امرأة محفورا على خشبه. وعلى كرسي آخر وجد رقم مريض وتاريخ موعد قديم. فهم أن كراسي قصر العافية لم يصنعها النجارون؛ كانت مرضى انتظروا حتى نسي الجميع أنهم بشر.

بدأت القارورة الأخيرة تنطفئ، وتوقف العصفور الثاني في صدر سراج عن الحركة.

ركض أيوب بين الممرات حتى وصل إلى غرفة محكمة الإغلاق، كتب فوقها:

«مخزون الأنفاس الاحتياطي»



كسر الباب بكتفه، فوجد آلاف القوارير مصطفة فوق الرفوف. كانت مليئة بأنفاس دافئة لم ترسل إلى القرى. على بعضها كتب: «للحالات الطارئة»، وعلى بعضها:»للاحتفالات الرسمية»، وعلى أكبرها:»لافتتاح الجناح الصحي الجديد».

أخذ أيوب قارورة وكسرها قرب فم سراج.

اندفع الهواء إلى صدر الطفل، فرفرف العصفوران من جديد. امتلأت الغرفة بصوت تنفسه، كأن نافذة فتحت فجأة في بيت مغلق منذ سنوات.

لكن أيوب سقط على الأرض.

جاء الحراس والموظفون، وحين أخبرهم أن قلبه لم يعد يملك إلا دقة واحدة، حملوه إلى قاعة الانتظار ووضعوا في يده رقما.

نظر إلى الرقم، فوجده أكبر من عدد أيام عمره.

جلس فوق كرسي فارغ، وشعر بالثقل يصعد من قدميه. حاول النهوض، لكن أصابعه كانت قد بدأت تتحول إلى أرقام، وجلده إلى خشب أبيض.

اقترب منه سراج، وقد عاد الهواء إلى صدره، وأمسك بطرف معطفه القصير.

قال الطفل:

- سنعود إلى القرية معا.



ابتسم أيوب بصعوبة، وخلع سماعته ووضعها حول عنقه.

- عد أنت... وأخبرهم أن الطبيب لم يمرض من التعب.

سأله سراج:

- مم مرضت؟

أجابه، بينما أخذ صوته يخرج من عمق الخشب:

- من الانتظار.

حين أشرقت الشمس، لم يبق في مكان الدكتور أيوب سوى كرسي أبيض، تتدلى من جانبه خيوط معطف قصير.

أعاد قصر العافية سراج إلى القرية، وأرسل معه ورقة تقول:

«تم علاج الحالة بنجاح.»

لم تذكر الورقة شيئا عن الطبيب.

عندما عاد الطفل، تجمع أهل قرية آخر النبض حوله. رأوا سماعة أيوب في عنقه، ولم يحتاجوا إلى السؤال.

في صباح اليوم التالي، حمل أهل القرية الكراسي التي صار إليها مرضاهم، وساروا نحو المدينة. انضمت إليهم القرى السبع، ثم الأحياء البعيدة، وكل قرية تحمل كراسيها فوق أكتافها.



لم يرفعوا شعارات، ولم يطرقوا الأبواب، ولم يصرخوا.

وضعوا الكراسي في الشرايين الحمراء، صفا بعد صف، حتى أحاطت بقصر العافية دائرة هائلة من المنتظرين.

حاول القصر أن يرسل نبضه إلى الأحياء القريبة، لكنه وجد الطرق مسدودة بالكراسي. ارتدت الدقة إلى داخله، فاصطدمت بجدرانه. ثم ارتدت دقة ثانية، وثالثة، حتى بدأ قصر العافية نفسه يرتجف.

لأول مرة، انطفأت مصابيح الأحياء الأولى، وبردت قوارير النبض فوق موائد الأغنياء.

وفي أعلى القصر، شعر الحاكم بألم مفاجئ في صدره.

صرخ وزير العافية:

- أحضروا طبيبا!

بحثوا في الغرف والممرات، لكنهم لم يجدوا سوى موظفين وأبواب وتقارير تؤكد أن المدينة بخير.

قال أحد الحراس:

- هناك طبيب جاء من قرية آخر النبض.

أسرعوا إلى قاعة الانتظار، فلم يجدوا الدكتور أيوب. وجدوا كرسيا أبيض فقط.

جلس الحاكم فوقه وهو يمسك قلبه، فانبعث من أعماق الكرسي صوت ضعيف:

- هل جاء دوري؟

تراجع الحاكم مذعورا.

تقدم سراج، ووضع سماعة أيوب على جدار القصر. أنصت طويلا، فسمع آلاف القلوب المحبوسة خلف الحجارة، وآلاف الأنفاس المكدسة في المخازن، وآلاف الساعات التي لا تقول سوى كلمة واحدة.

رفع الطفل رأسه وقال:

- المرض ليس في القرية.

وأشار إلى قصر العافية:

- المرض هنا.

في ذلك الصباح، فتحت نوافذ القصر نحو الخارج لأول مرة. لم تفتح لأن المسؤولين صاروا أكثر رحمة، بل لأن الخوف دخل أخيرا إلى الغرف التي لم يدخلها المرض من قبل.

أما الدكتور أيوب، فلم يعرف أحد هل عاد إنسانا أم بقي كرسيا في قاعة الانتظار.

لكن منذ ذلك اليوم، كلما وقف مسؤول في مدينة النبض ليعلن أن الناس بخير، كانت الكراسي تضرب أرجلها بالأرض دفعة واحدة، فيرتفع من تحتها صوت يشبه دقات قلب غاضب يطالب بالنبضات التي حرم منها طويلا.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا

بائع الجسور

حين تبنى الجسور من التصفيق،
لا يعبرها إلا بائعها

Produced by
RH©

لم تكن مدينة المعلقات بعيدة عن مدننا.

كانت فوقها بقليل، في تلك الطبقة من السماء التي تصعد إليها الوعود حين تعجز عن الهبوط إلى الأرض.

لم تكن المدينة مبنية فوق جبل أو سهل، بل كانت تتكون من جزر حجرية ضخمة معلقة بين الغيوم. فوق كل جزيرة حي، وبين حي وآخر فراغ عميق لا يرى له قاع.

وفي أعلى السماء، ارتفعت جزيرة واسعة تلمع أسوارها تحت الشمس، يقوم فوقها قصر المدينة، تحيط به الحدائق والمخازن والأبراج.

أما الجزر الصغيرة التي تسكنها عامة الناس، فكانت تتناثر أسفله مثل فتات خبز حول مائدة مرتفعة.

قال المؤرخون إن مدينة المعلقات لم تكن دائما هكذا. كانت في زمن قديم مدينة واحدة، مترابطة الشوارع والأسواق. لكن حكامها أكثروا من الوعود حتى امتلأت الأرض بالكلمات الفارغة، وصارت الحجارة خفيفة من شدة ما حملت من كلام لا وزن له.

وفي ليلة عاصفة، فقدت المدينة ثقلها.

ارتفعت الأحياء إلى السماء، وتقطعت الطرق بينها، وصار كل وعد لا ينفذ يدفع الجزر بعيدا بعضها عن بعض.

منذ ذلك الحين، كان أهل المدينة يحتاجون إلى الجسور أكثر من حاجتهم إلى الأبواب.

عاشت زهراء الوراقة في جزيرة صغيرة تسمى جزيرة الطين، داخل دار قديمة لحفظ الخرائط. كانت مهمتها أن ترسم موقع الجزر كل صباح، لأن المسافات بينها تتغير أثناء الليل.

تنام جزيرة الخبازين قرب جزيرة النساجين، ثم تستيقظ بعيدة عنها مئة ذراع. وقد تقترب جزيرة المدرسة من حي، فتفرح أطفاله، ثم تبتعد في الليلة التالية حتى تصبح خلف ثلاث سحب سوداء.

كانت زهراء تحمل بوصلة نحاسية ورثتها عن أبيها. لم تكن إبرتها تشير إلى الشمال، بل إلى أقرب وعد لم ينفذ.

وكانت الإبرة لا تهدأ أبدا.

تدور في يدها صباحا، وترتجف ظهرا، وتضرب زجاجها ليلا كأنها ذبابة محبوسة.

أما سكان الجزر، فكانوا ينتقلون بواسطة سلال معلقة في أرجل طيور ضخمة، أو يتشبثون بحبال قديمة تمتد فوق الفراغ. وكانت بعض الحبال تنقطع في الشتاء، فيبقى العمال بعيدين عن مصانعهم، والمرضى بعيدين عن دار العلاج، والتلاميذ يراقبون مدارسهم من خلف الغيوم.

وعلى جدران دار الخرائط، احتفظت زهراء برسوم قديمة لجسور كثيرة وعدت بها المدينة.

جسر الخبازين.

جسر المرضى.

جسر الطلبة.

جسر الأرامل.

جسر العودة الكبرى.

كانت الجسور جميلة في الرسوم، لكنها لم توجد قط خارجها.

في أحد الأيام، استيقظ السكان على صوت أجراس لم يسمعوها منذ أعوام.

ظهرت في الأفق قافلة تسير فوق الهواء. تقدمتها عربة طويلة تحملها غيمة سوداء، وخلفها صناديق زجاجية وأقفاص مذهبة ولفائف من الحرير الأزرق.

وقف فوق العربة رجل طويل يرتدي معطفا مخيطا من شرائط افتتاحات قديمة. كانت تتدلى من جيوبه مقصات ذهبية، وفي يده عصا تنتهي بمجسم صغير لجسر.



وصلت العربة إلى الساحة المعلقة في وسط المدينة، فتوقفت في الهواء من دون حبال أو أجنحة.

فتح الرجل ذراعيه وقال:

- يا أهل المعلقات، جئت لأعيد جمع مدينتكم.

وحين نطق كلماته، خرج من فمه خيط فضي طويل. امتد الخيط فوق الفراغ، ثم اتسع وتحول إلى جسر لامع يصل بين جزيرتين.

صاح الناس من الدهشة.

ركض مساعدو الرجل فوق الجسر، ورفعوا الرايات، وأطلقوا أسرابا من الطيور الملونة. ظل الجسر ثابتا ما دامت الموسيقى تعزف والناس يصفقون.

لكن حين توقف التصفيق لحظة، ارتجف الجسر وبهت لونه.

ضرب أحد المساعدين طبله بسرعة، فعاد إليه بريقه.

لم ينتبه إلى ذلك أحد، باستثناء زهراء.

أما البوصلة النحاسية في يدها، فقد أخذت تدور بعنف حتى كاد زجاجها ينكسر.

منذ تلك اللحظة، عرف الناس الرجل باسم:

بائع الجسور.

فتح بائع الجسور سوقه داخل خيمة لا تستقر في مكان واحد. كانت تظهر صباحا فوق جزيرة العمال، وعند الظهر قرب جزيرة التجار، وفي المساء تحط أمام بيوت الشيوخ.



داخل الخيمة، صف مئات القوارير الزجاجية. وفي كل قارورة بذرة مضيئة، ملتفة حول نفسها على هيئة جسر صغير.

قال البائع إن هذه بذور الجسور، وإنها تنبت في الهواء أسرع مما تنبت الأشجار في التراب.

كان يعرض على كل جزيرة الجسر الذي تحلم به.

أرى العمال جسرا عريضا يحملهم إلى المصانع قبل شروق الشمس.

وأرى المرضى جسرا يركض وحده نحو المستشفى.

ووعد الشباب بجسر يقود إلى جزيرة الوظائف، حتى إن بعضهم رأى اسمه مكتوبا فوق مكتبه في الضفة الأخرى.

أما سكان جزيرة الطين، فوعدهم بجسر لا يتأثر بالريح ولا المطر، تنمو على جانبيه الأشجار وتطير فوقه المصابيح ليلا.

قال لهم:

- لا أطلب منكم ذهبا ولا فضة. كل ما تحتاجه البذور هو شيء قليل من ثقتكم.

كان مساعدوه يعطون كل مواطن قارورة صغيرة فارغة، ويطلبون منه أن ينفخ داخلها أمنية واحدة.

وحين ينفخ الرجل أو المرأة، يخرج من صدره خيط رفيع من الضوء، فيغلق المساعد القارورة بسرعة ويكتب عليها اسم صاحبها.

بعد أيام، امتلأت عربة بائع الجسور بآلاف القوارير المتوهجة.

لكن سكان المدينة لم يلاحظوا أن ظلالهم أصبحت أقصر.ذ



دخلت زهراء خيمة البائع وهي تحمل خرائطها القديمة.

وضعت أمامه خريطة المدينة وسألته:

- أين ستزرع بذورك؟

ابتسم ومسح على لحيته.

- في الهواء.

- والجذور؟

- جسوري لا تحتاج إلى جذور.

- كل ما لا جذور له تحمله أول ريح.

رفع الرجل عصاه، فظهر فوقهما جسر شفاف تتدلى منه حدائق وطيور.

قال:

- أنت ترسمين المدينة كما هي، وأنا أراها كما ستكون.

أجابته زهراء:

- الخريطة التي لا تظهر الحفرة، تقود الناس إليها.

اختفت الابتسامة من وجهه لحظة، ثم عاد يضحك بصوت مرتفع.

اقترب منها وقال:



- مشكلتك أنك تؤمنين بالحبر أكثر مما تؤمنين بالأحلام.

وقبل أن تغادر، لاحظت زهراء بابا صغيرا خلف الستائر. كانت تخرج من تحته خيوط الضوء المسروقة من أمنيات السكان، وتمتد جميعها في اتجاه واحد.

لم تكن تتجه نحو الجزر الفقيرة.

كانت تصعد نحو قصر المدينة.

بدأ موسم الاختيار.

في كل ليلة، كان بائع الجسور يزرع بذرة جديدة في الهواء. تنشق البذرة، وتخرج منها أغصان من نور تتشابك فوق الفراغ. وما إن يكتمل الجسر حتى تصعد فوقه فرق الموسيقى، وتنتشر الروائح الطيبة، ويرى كل شخص في نهايته ما يتمناه.

من يريد العمل يرى مصنعا.

ومن يريد العلاج يرى مستشفى.

ومن يريد الماء يرى نافورة.

ومن يريد مدرسة يرى أبوابا مفتوحة.

لم تكن الجسور تقود الجميع إلى المكان نفسه، رغم أنهم يقفون فوقها جنبا إلى جنب.

كان كل واحد يمشي داخل حلمه وحده.

وفي نهاية كل حفل، يعود السكان إلى بيوتهم مقتنعين بأنهم عبروا، مع أن أقدامهم لم تغادر الجزيرة.

جلست زهراء ليالي طويلة تقارن خرائط المدينة. وحين وضعت الخرائط القديمة فوق الجديدة، اكتشفت شيئا مخيفا.

كلما نما جسر من جسور البائع، ابتعدت الجزر الحقيقية أكثر.

كانت البذور لا تصنع جسورا.

كانت تمد جذورها الخفية تحت الجزر، وتقتلع منها الحجارة، ثم ترسلها عبر خيوط الأمنيات إلى جزيرة القصر.

لهذا كان القصر يكبر بعد كل موسم، بينما تصغر أحياء الناس.

جاءت ليلة الاختيار الكبرى.

علقت الصناديق في الهواء، وحمل كل مواطن قارورته الصغيرة. وعندما وضعها داخل الصندوق، خرج منها خيط الضوء الذي حفظه بائع الجسور.

تجمعت آلاف الخيوط فوق الساحة.

تشابكت، والتفت، وصنعت جسرا هائلا لم تر المدينة مثله من قبل. كان يمتد من جميع الجزر، لكنه لم يصل بينها.

كانت فروعه كلها تلتقي عند جزيرة القصر.

صعد بائع الجسور فوقه بعربته وصناديقه ومساعديه. وكلما تقدم خطوة، اقتلعت قطعة حجر من جزر السكان والتحقت بالطريق تحت قدميه.

صفق الناس وهم يظنون أنه ذاهب لبناء جسورهم.

وحين وصل إلى القصر، استدار ولوح لهم.

ثم أغلق البوابة.

انطفأت الموسيقى.

وتحولت الجسور المضيئة إلى دخان.

في الصباح، وجد السكان أنفسهم أبعد من ذي قبل. أصبحت جزيرة المدرسة وراء سبع سحب، وابتعد المستشفى حتى لم يعد يرى إلا في الليالي الصافية.

أما جزيرة القصر، فقد اتسعت حدائقها وظهرت فوقها أبراج جديدة.

مرت الأعوام.

أنشأ القصر ديوانا لدراسة الرياح، ثم مجلسا لتحديد لون الجسور، ثم لجنة لاختيار أسماء اللجان التي ستشرف على البناء.

وصل إلى السكان كل شهر صندوق صغير يحمل أخبارا سعيدة:

اكتملت دراسة شكل المصابيح.

تم الاتفاق على لون الحبال.

بدأ التفكير فى مكان حجر الأساس.



أما الجسر، فلم يبدأ.

وكان بائع الجسور يظهر أحيانا في شرفة القصر، يشير إلى مجسمات معلقة خلفه ويقول:

- المشاريع تسير في الاتجاه الصحيح.

لكن زهراء كانت تنظر إلى بوصلة أبيها، فتجد إبرتها تشير دائما نحو القصر.

مع مرور الوقت، بدأت حواف الجزر تتفتت. صارت البيوت القريبة من الفراغ تميل، والأزقة تضيق، والأطفال يربطون أنفسهم بالحبال قبل الذهاب إلى المدرسة.

ومع ذلك، ظل بعض السكان يحتفظون بالقوارير الفارغة فوق رفوفهم، منتظرين أن تعود أمنياتهم.

بعد أعوام، دقت الأجراس من جديد.

عاد بائع الجسور.

كان معطفه هذه المرة أطول، وعربته أكبر، وخلفه تنين زجاجي يحمل لفافة ضخمة.

وقف فوق الساحة وأعلن:

- لقد اكتشفنا سبب تعثر الجسور السابقة: كانت تحتاج إلى ضفتين. أما مشروعنا الجديد، فهو جسر لا يحتاج إلى أرض ولا بداية ولا نهاية!

فتح اللفافة، فظهر في السماء جسر دائري يلتف حول نفسه، مزين بالقصور والحدائق.

صفق بعض الناس.

وفور أن بدأ التصفيق، انطلقت خيوط ضعيفة من صدورهم نحو معطفه.



لكن زهراء صعدت إلى أعلى دار الخرائط، وفتحت كتابا ضخما صنعته من جميع خرائط المدينة القديمة.

عندما لامس ضوء القمر صفحاته، خرجت منها رسوم الجسور الموعودة.

ظهرت في السماء مئات الجسور الشفافة، مثل هياكل عظمية عملاقة. جسر العمال، وجسر المرضى، وجسر الطلبة، وجسر الخبازين، وجسر العودة الكبرى.

لكن الخرائط أظهرت حقيقتها.

لم يكن أي جسر منها يصل بين جزيرتين.

كانت جميعها تتجه نحو القصر.

سكتت الطبول.

وتوقف التصفيق.

بدأ جسر البائع الجديد يذبل.

صرخ الرجل:

- لا تصدقوا الخرائط القديمة! المستقبل لا يبنى بالنظر إلى الخلف!

رفعت زهراء بوصلة أبيها وقالت:

- من يطلب منا أن ننسى الطريق الذي سلكناه، يريد أن يبيعنا الحفرة نفسها مرة أخرى.



ثم فتحت البوصلة.

خرجت منها إبرة طويلة من الضوء، واتجهت نحو أكبر وعد كاذب في المدينة. اخترقت الجسر الدائري، فعاد إلى صورته الحقيقية: خيوط مسروقة من صدور الناس، وحجارة منتزعة من بيوتهم، وطريق واحد يقود إلى كرسي القصر.

رأى السكان ظلالهم معلقة في معطف البائع.

فتقدم رجل واستعاد خيطه.

ثم تقدمت امرأة.

ثم عامل وخباز ومعلم وعجوز وعشرات الأطفال.

كلما استعاد شخص خيط أمنيته، عاد ظله كاملا، وسقط جزء من الجسر الكاذب.

تقلص معطف البائع، وانطفأت عربته، وهبط التنين الزجاجي إلى الأرض وتحول إلى كومة من القوارير الفارغة.

حاول الرجل الوصول إلى جزيرة القصر، لكنه لم يجد جسرا يحمله.

للمرة الأولى، وقف بائع الجسور على الحافة نفسها التي ترك الناس فوقها أعواما طويلة.

لم تقترب الجزر من بعضها في تلك الليلة، ولم يظهر جسر عظيم عند شروق الشمس.

فالجسور الحقيقية لا تنبت من التصفيق، ولا تكتمل في ليلة واحدة.

لكن زهراء نزلت مع السكان إلى أسفل جزيرة الطين. هناك وجدوا، بين الصخور، جذرا قديما متحجرا يعود إلى الشجرة التي كانت تجمع المدينة قبل أن تمزقها الوعود.

غرسوا فيه أول حجر حقيقي، وكتبوا فوقه ما سيبنى، وكم يحتاج، ومتى يبدأ، ومن سيحاسب إذا توقف.

وعندما وضع الحجر في مكانه، خرج من الجذر غصن صغير، امتد شبرا واحدا نحو الجزيرة المقابلة.

كان أقصر جسر رأته المدينة.

لكنه كان أول جسر لا يختفي عندما يتوقف التصفيق.

ومنذ ذلك اليوم، صار كل وعد ينفذ يضيف حجرا إلى الجسر، وكل وعد ينكث يعود إلى فم صاحبه شوكة لا يستطيع ابتلاعها.

أما بائع الجسور، فغادر المدينة ماشيا فوق حبل قديم، بعدما اكتشف أن المدن يمكن خداعها ما دامت ذاكرتها موزعة على جزر متباعدة.

لكن حين تصل الحقيقة بين تلك الجزر، لا يبقى لبائع الوهم جسر يعبر فوقه.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا

البئر الذي نسي القرية



حين صار الماء يتذكر القصور وينسى العطشى

Produced by

RH©

لم تكن قرية السواقي السبع بعيدة عن مدننا، وإن كانت الخرائط تنكر وجودها. كان يكفي للوصول إليها أن تسلك طريقا يضيق كلما اتسعت الوعود، ثم تنعطف عند شجرة تين يابسة، وتسير حتى تسمع الأرض تتنفس تحت قدميك.

كانت القرية تستلقي بين سبعة تلال صفراء، ككف مفتوحة تنتظر قطرة من السماء. وفي وسطها بئر عتيق يسميه الناس العين الزرقاء، لأنه لم يكن حفرة مظلمة كبقية الآبار، بل كان في قاعه ضوء أزرق يتحرك كعين مفتوحة لا تنام.



لم يعرف أحد متى حفر البئر. قالت الجدات إن الجبل بكى ذات شتاء، فسقطت دمعة في الوادي وظلت تتسع حتى صارت بئرا. وقال الشيوخ إن رجلا صالحا ضرب الأرض بعصاه فخرج منها الماء. أما الأطفال، فكانوا يعتقدون أن بحرا صغيرا يعيش تحت القرية، وأن البئر نافذته الوحيدة إلى العالم.

غير أن الجميع كانوا متفقين على شيء واحد: العين الزرقاء تعرف أهل القرية واحدا واحدا.

حين يقف الفلاح عند حافتها وينا ديها، يرتفع الماء حتى يبلغ دلوه. وحين تأتي أم تحمل رضيعا، يصبح الماء أكثر صفاء وبرودة. وإذا اقترب منها رجل يطلب أكثر من حاجته، هبط الماء فجأة، وظل الدلو يتأرجح في الفراغ حتى يخجل صاحبه وينصرف.

وعلى الحجارة المحيطة بالبئر، كانت أسماء العائلات منقوشة منذ أجيال؛ اسم كل بيت، وكل حقل، وكل ساقية. لم تكن تلك الأسماء سجلا للملكية، بل ذاكرة للماء، حتى لا يضيع طريقه بين الناس.

وكانت لالة رحمة آخر من يحفظ أسماء السواقي السبع كاملة. امرأة تجاوز عمرها ما يستطيع أحد حسابه، تجلس قرب البئر منذ الفجر، وتستطيع أن تعرف من صوت الدلو إن كان الماء غاضبا أو متعبا.

كانت تعيش مع حفيدتها غيثة، شابة في التاسعة عشرة، بعينين واسعتين بلون التراب بعد المطر. مات والدها وهو يحفر ساقية جديدة، ثم لحقت به أمها بعد سنوات من المرض، فكبرت غيثة بين رائحة الطين وصوت جدتها وهي تقول:

- لا تخافي من بئر عميق يا ابنتي، خافي من يد طويلة تصل إلى قاعه.

ولسنوات كثيرة، لم يفهم أحد معنى كلامها.

ثم جاء العام الذي نسيت فيه الغيوم طريقها.

عبرت السحب فوق القرية مسرعة، كأن موعدا مهما ينتظرها في مكان آخر. جفت البرك، وتشققت الحقول، وصارت الأشجار تسقط أوراقها قبل أن يأتي الخريف. حتى الريح فقدت رائحتها، وأصبحت تدخل البيوت محملة بغبار مالح.

لكن العين الزرقاء بقيت تمنح الناس ما يكفيهم. لم يكن ماؤها غزيرا، إلا أنها كانت عادلة؛ تنقص من نصيب الجميع قليلا، حتى لا يبيت بيت وفيه جرة ممتلئة بينما ينام بيت آخر عطشانا.

وفي صباح قائظ، ظهرت عند مدخل القرية عربات سوداء طويلة، تجر خلفها أنابيب ذهبية ضخمة. نزل منها رجال يرتدون بذلات زرقاء لامعة، ويحملون دفاتر سميكة لا تتسع فيها صفحة واحدة لقطرة ماء.

تقدم كبيرهم، وكان رجلا مستديرا لا يبدو عليه أنه عطش يوما، ووقف فوق منصة أقيمت قرب البئر. خلفه رفعت لافتة كبيرة كتب عليها:

المشروع العظيم لإنقاذ الماء من سكانه

صفق الموظفون طويلا، فنظر أهل القرية بعضهم إلى بعض، ولم يعرفوا هل ينبغي لهم أن يصفقوا أيضا.

قال الرجل بصوت تدرب طويلا على الوعود:

- جئناكم بخبر سار. لقد قرر ديوان تنظيم العطش حماية بئركم من الاستعمال العشوائي.

رفع فلاح يده وسأل:

- ومن الذي سيحميه؟

ابتسم الرجل وقال:

- نحن.

سأله آخر:

- وممن؟

أجاب وهو يشير إلى أهل القرية:

- منكم، بالطبع.

وفي اليوم نفسه، أحاط العمال العين الزرقاء بطوق من الحديد، وثبتوا فوقها ساعة ضخمة تعد القطرات. ثم محوا بعض الأسماء القديمة من الحجارة، ووضعوا بدلا منها أرقاما متسلسلة. صار بيت لالة رحمة يحمل الرقم سبعة وأربعين، وصار حقل العم سالم قطعة زراعية رقم مئة وثلاثة، وتحولت ساقية الصفصاف إلى المجرى الثانوي رقم تسعة.

قال مفوض الماء إن الأرقام أكثر دقة من الأسماء، وإن الماء لا يحتاج إلى معرفة الناس كي يصل إليهم.



ثم مد العمال الأنابيب الذهبية في جوف البئر. كانت تزحف ليلا تحت الأرض كجذور معدنية، لكنها لم تتجه نحو بيوت القرية ولا حقولها. تسلقت التلال واختفت خلف الجبل، في الطريق المؤدي إلى مدينة الشرفات.

وحين سأل الناس عن وجهتها، أجاب المفوض:

- لا تقلقوا. الماء يسلك طرقا علمية لا يفهمها عامة العطشى.

بعد ثلاثة أيام، نسيت العين الزرقاء أول بيت.

جاءت أرملة عجوز تحمل دلوها، ونادت البئر باسمها واسم زوجها الراحل، كما فعلت طوال أربعين عاما. أنزلت الحبل، لكنه عاد فارغا.

حاولت مرة ثانية، ثم ثالثة.

ومن القاع، صعد صوت خافت:

- من أنت؟

جلست المرأة على الأرض وبكت.

قال الموظف الجالس خلف طاولة قرب البئر:

- لا داعي للمبالغة. ربما لم يعد اسمك مسجلا في ذاكرة الماء الجديدة.

وفي الأسبوع التالي، نسي البئر زقاق الطحانين كله. ثم نسي الحقول الشرقية، وبعدها نسي المدرسة والفرن وبيت لالة رحمة.

صار الناس يقفون عند حافته وينادونه، فلا يجيبهم سوى الصدى:

- من أنتم؟ - من أنتم؟ - من أنتم؟

أما الساعة المثبتة فوقه، فكانت تدور بسرعة، معلنة أن ملايين القطرات تمر كل يوم، مع أن دلاء القرية كانت تعود مملوءة بالهواء.

وزع الديوان على السكان بطاقات زرقاء سميت بطاقات الاستحقاق المائي. كان على كل أسرة أن تقف في طابور طويل لتثبت أنها عطشى. ومن ينجح في تقديم الوثائق المطلوبة، يحصل على خمس جرعات كل ثلاثة أيام.

سأل رجل الموظف:

- وهل تكفي خمس جرعات لعائلة من سبعة أشخاص؟

أجابه وهو يقلب أوراقه:

- وفق حساباتنا، أنتم لا تحتاجون إلى الماء كل يوم.

- ومن قال ذلك؟

- الجدول.

شيئا فشيئا، تغيرت القرية. صار الناس يغسلون وجوههم بالظلال، وينظفون أوانيهم بالرمل، ويجمعون الندى عن أوراق الصبار قبل طلوع الشمس. كانت الأمهات يتركن نصف الكأس لأطفالهن، ويقنعنهم بأن العطش يساعد على النوم.

حتى الأشجار تعلمت الاقتصاد؛ طوت أغصانها حول جذوعها، وأصبحت تمنح ظلا ضيقا لا يتسع إلا لشخص واحد.

وفي ذروة العطش، وصلت إلى القرية عربات فضية تحمل قوارير زجاجية جميلة. كتب عليها:

ماء الندى المضمون - مستخرج من منابع بعيدة ونقية

كان ثمن القارورة يعادل أجرة يوم كامل، ومع ذلك باع الناس خواتمهم وأغطيتهم وأدوات الزراعة ليشتروا الماء.

ذات ليلة، وضعت غيثة قارورة قرب فراش جدتها. وما إن هدأ البيت حتى صدر من داخلها صوت خافت، كأن امرأة تغني في قاع كهف.

جلست لالة رحمة فجأة، وأمسكت القارورة بكلتا يديها.

قالت:

- أعرف هذا الصوت.

اقتربت غيثة، فسمعت خريرا خفيفا يتردد داخله لحن قديم كانت أمها تغنيه قرب البئر.

همست الجدة:

- هذا ماؤنا يا غيثة، الماء لا ينسى الأغاني التي سمعها وهو يصعد من الأرض.

في الفجر، اختبأت غيثة خلف إحدى العربات الفضية. سارت العربة خارج القرية، ثم صعدت الطريق الملتوي نحو مدينة الشرفات.



هناك رأت عالما لم تتخيل وجوده.

كانت فوق الجبل خزانات زجاجية ضخمة، معلقة في الهواء كغيوم مربوطة بالسلاسل. تدفقت إليها الأنابيب الذهبية القادمة من العين الزرقاء، ثم توزعت على القصور والحدائق. في الساحات، كانت النوافير تقذف الماء أمتارا في السماء، وترسم به أسماء كبار المسؤولين. وكانت المياه تنحدر على جدران المطاعم للزينة، بينما جلس رجال ديوان العطش يتناقشون حول ضرورة تعليم سكان القرى ترشيد الاستهلاك.

رأت غيثة ماء قريتها يدور في أحواض الرخام، ثم يجمع في قوارير ليباع لأهله.

عادت تركض إلى السواقي السبع، وقدماها تنزفان من صخور الطريق. وحين أخبرت الناس بما رأت، حملوا بطاقاتهم الفارغة وتوجهوا إلى قصر المياه.

كان القصر مبنيا فوق بحيرة صناعية، ولا يمكن الوصول إلى بابه إلا عبر جسر ترش جوانبه نافورات صغيرة طوال النهار.

استقبلهم موظف يجلس خلف مكتب على شكل قطرة، وقال دون أن يرفع رأسه:

- ما موضوع الشكوى؟

أجاب أحد الفلاحين:

- أخذوا ماء بئرنا وحولوه إلى مدينة الشرفات.

سأل الموظف:



- هل لديكم ما يثبت أن الماء لكم؟

أشار الرجل إلى شفتيه المتشققتين:

- هذا هو الدليل.

هز الموظف رأسه:

- التشققات لا تقبل كوثائق رسمية.

أخرج استمارة طويلة ودفعها إليهم.

- املؤوا طلب إثبات مصدر الماء، وأرفقوه بشهادة تثبت أن البئر كان يعرفكم قبل تركيب الأنابيب.

سألته غيثة:

- ومن أين نأتي بهذه الشهادة؟

- من البئر.
- لكنه لم يعد يتذكرنا.
- إذن لا يمكنه أن يشهد لكم.

ثم ناولهم ورقة أخرى وقال:

- بعد ذلك تحتاجون إلى ختم مائي.

تأمل الفلاحون الورقة الجافة وسألوا:

- وما الختم المائي؟

أشار الموظف إلى وعاء صغير على مكتبه:

- تضعون الختم في كأس ماء، ثم تطبعونه على الطلب.

قالت لالة رحمة:

- ولو كان عندنا كأس ماء، لما أتينا إلى هنا.

رفع الموظف كتفيه وأجاب:

- هذه ليست مشكلتي. نحن نعالج الوثائق، لا العطش.

عاد أهل القرية عند الغروب، يحملون أوراقا لا يستطيعون ختمها، ويمشون بمحاذاة الأنابيب التي يسمعون داخلها ماءهم يركض في الاتجاه المعاكس.

في تلك الليلة، أخرجت لالة رحمة من صندوق خشبي إناء صغيرا من الطين. كانت على جوانبه أسماء السواقي والبيوت القديمة، منقوشة بحروف دقيقة.

قالت لغيثة:

- كان أجدادنا ينزلون بهذا الإناء إلى العين الزرقاء حين يختلط عليها صوت الناس بصوت العواصف. خذيه إليها. إن كان في البئر شيء يتذكر، فسيعرف هذه الأسماء.

قبل الفجر، تسللت غيثة عبر فتحة ضيقة تركها العمال في الطوق الحديدي. ربطت حبلا حول خصرها، وبدأت تنزل إلى جوف البئر.

كلما هبطت، أصبحت أصوات الأنابيب أعلى. لم تكن تسمع خرير الماء فقط، بل أنينا ثقيلا، كأن نهرا كاملا يسحب من عنقه.

بلغت القاع، فرأت العين الزرقاء مقيدة بحلقات من الحديد. كانت الأنابيب مغروسة في الصخر، تمتص الماء وتدفعه نحو الأعلى. وعلى كل أنبوب لوحة تحمل اسم حي من أحياء مدينة الشرفات، بينما تراكمت أسماء أهل القرية ممزقة في زاوية مظلمة، كأوراق لم تعد صالحة للاستعمال.

رفعت غيثة الإناء الطيني وقالت:

- يا عيننا الزرقاء، ألم تعد تعرفيننا؟

اهتز الماء، وصعد منه صوت متعب:

- لم أنسكم.

- فلماذا لا تصعدين إلى دلائنا؟

قال البئر:

- أغلقوا أذني بالحديد، ومحوا أسماءكم من الحجارة. كلما حاولت الوصول إليكم، دفعتني الأنابيب نحو بيوت لا أعرفها.

- والناس يظنون أنك جففت.

- لم أجف. لقد غيروا لي الطريق، ثم أخبروكم أن السماء هي المذنبة.



وضعت غيثة الإناء في الماء، وبدأت تقرأ الأسماء المنقوشة عليه: اسم الأرملة، واسم الطحان، واسم المدرسة، واسم الحقل الشرقي، واسم كل بيت نسيه البئر.

مع كل اسم، أضاء جزء من العين الزرقاء.

وفوق الأرض، سمعت لالة رحمة الصوت، فوقفت عند حافة البئر ونادت باسمها. ثم نادى الفلاحون بأسمائهم، ونادت الأمهات بأسماء أطفالهن، ورفع الشيوخ أصواتهم بأسماء الذين ماتوا وهم ينتظرون المطر.

امتلأ جوف الأرض بآلاف الأسماء.

ارتج الطوق الحديدي، وتساقطت الساعة التي كانت تعد القطرات. تشققت الأنابيب الذهبية واحدا بعد آخر، واندفع منها الماء كأنه استعاد ذاكرته فجأة.

توقف أولا عن الصعود إلى مدينة الشرفات.

سكنت النوافير، واختفت أسماء المسؤولين من الهواء. جفت الجدران المائية، وبقي ضيوف المطاعم يحدقون في أحواض الرخام الفارغة.

ثم عاد الماء عبر الشقوق القديمة، فامتلأت ساقية الصفصاف، ووصل إلى الحقول الشرقية، ودخل زقاق الطحانين. وارتفع في العين الزرقاء حتى بلغ الإناء الذي تحمله غيثة.

لكن القرية لم تحتفل طويلا.

في اليوم التالي، عادت العربات السوداء، ونزل منها مفوض الماء غاضبا.

صاح:



- لقد عبثتم بالنظام وتسببتم في عطب كبير!

أجابه أحد الفلاحين:

- العطب الوحيد أن الماء عاد إلى أصحابه.

قال المفوض:

- الماء لا يملك أصحابا. نحن الذين نقرر طريقه.

عندها تقدم أهل السواقي السبع، ووقفوا في دائرة حول البئر. لم يحملوا أسلحة، بل حمل كل واحد منهم دلوا فارغا. وكان صوت الدلاء وهي تصطدم ببعضها أشد وقعا من صوت الحديد.

نزعت لالة رحمة آخر رقم ثبته الموظفون على حافة العين الزرقاء، وأعادت مكانه حجرا يحمل اسم القرية.

لم تهطل الأمطار في ذلك اليوم، ولم تمتلئ الحقول بمعجزة. ظل الجفاف قاسيا، وظل الماء قليلا. لكن الناس أعادوا فتح السواقي، واقتسموا ما لديهم بعدل، ومنعوا أن تمتلئ جرة قبل أن تحصل بقية البيوت على نصيبها.

تعلموا أن الماء القليل يمكن أن يكفي إذا لم يجبر على خدمة نافورة قبل أن يروي طفلا.

أما مدينة الشرفات، فقد أرسلت رسائل كثيرة تطالب بإصلاح الأنابيب، لكن جميع الرسائل عادت بلا ختم؛ لأن موظفيها لم يجدوا كأس ماء يبللون به الطابع.

ومنذ ذلك الحين، كلما سأل غريب أهل السواقي السبع:

- أحقا نسيكم البئر؟

أجابوا:

- البئر لا ينسى. لكنه قد يقيد، وقد تمحى الأسماء من حوله، وقد يرسم له الأقوياء طريقا لا يمر بالعطشى.

وفي الليالي الهادئة، كان صوت العين الزرقاء يصعد من الأعماق ويهمس:

- أنا أعرفكم جميعا... فلا تسمحوا لأحد أن يغير لي الطريق.

ففي بلاد تشبه بلادنا، لا يكون العطش دائما لأن السماء بخلت بالمطر؛ أحيانا يكون الماء موجودا، لكنه يتعلّم أن يصعد نحو الاحياء الغنية، بينما تترك القرى في الأسفل تتهم الغيوم.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا



البابان

طريق يسرق العمر... وباب يفتحه الاسم

Produced by

RH©

لم تكن مدينة الأبواب بعيدة عن مدينة الطوابير، ولا عن السوق ذي الميزان المائل. كانت تقع بين جبل يغير مكانه كل مساء، ونهر لا يسمح لأحد بعبوره إلا إذا أخبره إلى أين يريد الوصول.

ومع ذلك، لم تكن المدينة تظهر على الخرائط.

كان أهلها يقولون إن السبب يعود إلى سحابة سوداء تغطيها، لكن الحقيقة كانت أبسط من ذلك: من يعرف شخصا في المدينة، يجد مدخلها بسهولة، ومن لا يعرف أحدا، يظل يدور حول أسوارها حتى تبلى قدماه.

لم تكن في المدينة نوافذ، ولم تكن لها شوارع بالمعنى المعروف. كانت هناك أبواب فقط؛ أبواب تؤدي إلى البيوت، وأبواب تؤدي إلى المدارس، وأبواب تؤدي إلى الوظائف، وأبواب تؤدي إلى الأحلام.

حتى الأطفال كانوا يولدون وفي أعناقهم مفاتيح صغيرة، تكبر معهم عاما بعد عام.

وكان لكل بناية في المدينة بابان.

باب كبير في الواجهة، مرتفع حتى إن الداخل منه لا يرى نهايته. تقف أمامه طوابير طويلة، ويحرسه رجال بوجوه من نحاس، يطلبون من كل قادم شهاداته ومفاتيحه وأسباب رغبته في العبور.

أما الباب الثاني فكان صغيرا، لا يزيد حجمه عن نافذة، ويختبئ خلف المبنى. لم يكن له عنوان ثابت، وكان ينتقل من جدار إلى آخر كالسحلية. لا يراه إلا الذين يعرفون مكانه، ولا يفتح بمفتاح، بل باسم يهمس به في أذن الحارس.

وكان بعض الناس يدخلون من الباب الكبير شيوخا، بعدما وقفوا أمامه شبابا، بينما يدخل آخرون من الباب الصغير أطفالا ويخرجون منه رؤساء.

في أحد أحياء المدينة عاش شاب اسمه أيوب مع أبيه، صانع المفاتيح العجوز.

كان أبوه يصنع المفاتيح منذ أكثر من أربعين سنة، لكنه لم ينجح في فتح باب واحد لنفسه. كانت أصابعه تعرف لغة الحديد، وتفهم مزاج الأقفال، وتسمع أنين الأبواب حين تصدأ، ومع ذلك ظل دكانه صغيرا، وسقفه منخفضا، ونوره ضعيفا.

منذ طفولته، كان أيوب يراقب أباه وهو يطرق الحديد فوق السندان، فيرى الشرر يتطاير مثل نجوم قصيرة العمر.

وكان الأب يقول له:

- اصنع مفتاحك جيدا يا بني، لكن لا تنس أن بعض الأقفال في هذه المدينة لا تنتظر مفتاحا... بل تنتظر اسما.

لم يفهم أيوب كلامه يومها.

كان يعتقد أن لكل باب مفتاحا، وأن من يتعلم جيدا ويجتهد كثيرا، سيصنع المفتاح الذي يفتح له الطريق.

لذلك أمضى سنواته يتعلم في مدرسة الأقفال السبعة. درس لغة الأبواب الصامتة، وحساب المفاصل، وهندسة الممرات، وتاريخ المفاتيح المكسورة. وكان يسهر حتى تغفو المصابيح، ثم يواصل القراءة على ضوء الحروف التي تخرج من الكتب وتحوم حول رأسه.

وعندما بلغ عامه الخامس والعشرين، صنع مفتاحا من سبعة معادن. وضع فيه قطعة من صبر أمه الراحلة، وقطرة من عرق أبيه، وحفنة من لياليه الطويلة. وكان المفتاح يضيء كلما اقترب من باب يستحق أن يفتح.



وفي صباح رمادي، حلقت فوق المدينة طيور حديدية، تحمل في مناقيرها إعلانا مختوما بختم قصر الجهات السبع:

«تعلن المملكة عن فتح باب الترشح لمنصب أمين مفتاح الفجر، المكلف بفتح بوابة الشرق كل صباح، حتى يدخل النور إلى المدينة. المنصب واحد، والفرصة متاحة للجميع، ولن يفوز إلا الأكثر علما وكفاءة.»

ما إن قرأ أيوب الإعلان حتى أضاء مفتاحه بين يديه.

كان منصب أمين مفتاح الفجر من أهم مناصب المدينة، لأن صاحبه يتحكم في البوابة التي تدخل منها الشمس. وإذا تأخر في فتحها، استيقظ الفقراء في الظلام، وبقيت المصانع نائمة، وضلت الطيور طريقها إلى أعشاشها.

ابتسم الأب عندما أخبره أيوب بأنه سيترشح، لكنه لم يبد سعيدا تماما.

فتح صندوقا قديما وأخرج منه مفتاحا أسود، نصفه محترق ونصفه الآخر ذائب.

قال:

- صنعت هذا المفتاح حين كنت في عمرك. وصلت به إلى آخر القصر، لكنني اكتشفت أن الباب كان قد فتح لشخص آخر قبل أن يبدأ الامتحان.

حمل أيوب مفتاح أبيه ووضعه إلى جانب مفتاحه المضيء.

- ربما لم يكن مفتاحك كاملا.

أجابه الأب بصوت خافت:

- بل كان الباب هو الناقص.

في فجر اليوم التالي، وصل أيوب إلى قصر الجهات السبع.

كان القصر بلا سقف، ترتفع جدرانه حتى تختفي داخل السحاب. وفي واجهته باب أزرق هائل، نقشت فوقه عبارة:

«الباب الكبير مفتوح أمام الجميع.»

لكن الباب كان مغلقا.

أمامه وقف آلاف المترشحين، يحمل كل واحد منهم صندوقا زجاجيا وضع داخله سنوات دراسته، وأيام تعبه، والأحلام التي أجلها حتى يحين يوم الفرصة.

كان الطابور طويلا إلى درجة أن آخر الواقفين فيه كان يقف في يوم الأمس.

انضم أيوب إليهم وانتظر.

كلما مرت ساعة، خرجت من الباب يد حجرية طويلة، وانتزعت من عمر كل مترشح يوما كاملا. بعضهم فقد شهرا، وبعضهم فقد سنة، وآخرون شابت رؤوسهم قبل أن يبلغوا مدخل القصر.

وبينما كان أيوب يتقدم ببطء، لمح عربة ذهبية تتوقف خلف المبنى. نزل منها شاب يرتدي معطفا أخضر، ويحمل فوق كتفه طائرا نائما. لم يكن يحمل صندوقا ولا مفتاحا ولا حتى ورقة.

اقترب من الجدار، فظهر أمامه باب صغير لم يكن موجودا قبل لحظات. همس بكلمة في أذن الحارس، فانحنى الحارس حتى لامس رأسه الأرض، ثم اختفى الشاب وراء الجدار.

سأل أيوب أحد الحراس النحاسيين:

- إلى أين يؤدي ذلك الباب؟

نظر الحارس إلى الجدار، وقد اختفى الباب منه، وقال:

- لا يوجد هناك باب.

- لقد رأيته بعيني.

- إذن كان عليك ألا تراه.

بعد ثلاثة أيام من الانتظار، دخل أيوب القصر.

كان الامتحان الأول في قاعة الأسئلة الطائرة. أطلقت اللجنة مئات الأسئلة المجنحة، فحلقت فوق رؤوس المترشحين. وكان عليهم الإمساك بكل سؤال قبل أن يهرب، ثم الإجابة عنه قبل أن يعض أصابعهم.

أمسك أيوب أسئلته كلها، ووضع الإجابات الصحيحة في أفواهها، فتحولت إلى طيور بيضاء وحطت على كتفيه.

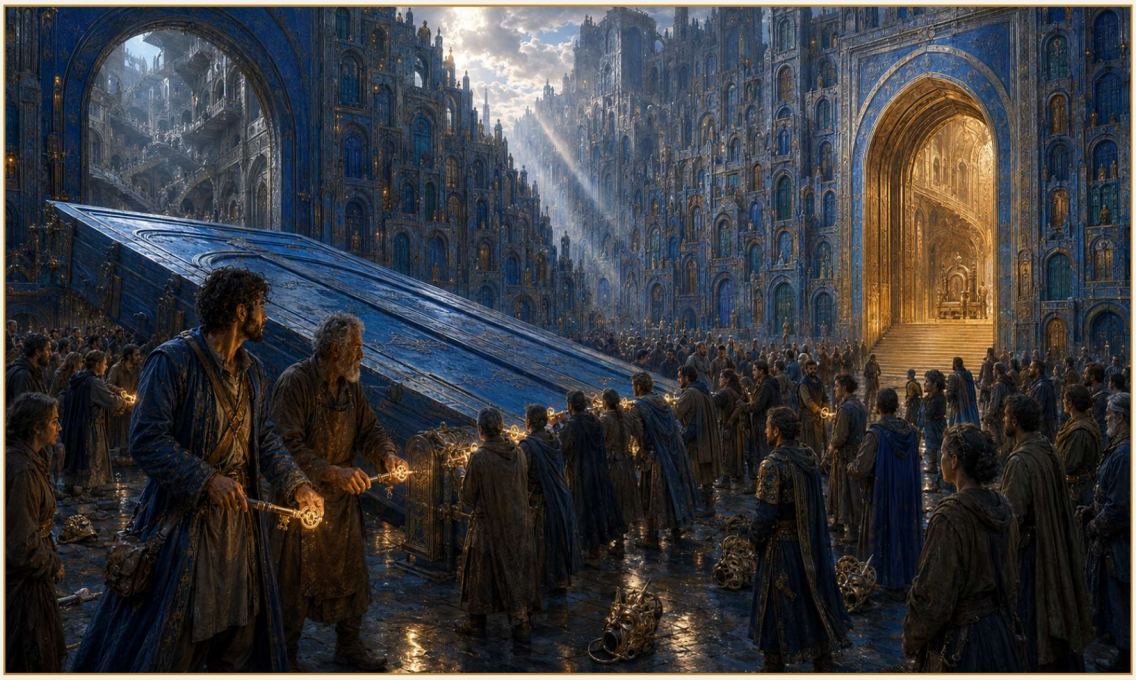

أما الامتحان الثاني فكان عبور جسر الشك، وهو جسر زجاجي يختفي كلما تردد المترشح في قدرته على الوصول. سقط كثيرون في حفرة النسيان، لكن أيوب عبره بثبات.

وفي الامتحان الثالث، طلبوا منهم إصلاح ساعة ضخمة فقدت عقاربها. أعاد أيوب ترتيب تروسها، فبدأت الساعة تمشي إلى الأمام للمرة الأولى منذ سنوات.

توالت الاختبارات: غرفة بلا أرض، ومكتبة تغير كتبها أماكنها، وبئر لا يعيد الصوت إلا إذا كان صادقا.

وفي كل امتحان كان مفتاح أيوب يزداد ضوءا، حتى صار المترشحون يسيرون خلفه في الممرات المظلمة.

بعد سبعة أيام، لم يبق سوى خمسة مترشحين.

دخلوا القاعة الأخيرة، حيث جلس أعضاء اللجنة على كراس عالية. كانت وجوههم مغطاة بأقنعة على شكل أقفال، وأمامهم كرسي ذهبي فارغ، نقشت عليه صورة شمس تفتح عينيها.

قرأ كبير اللجنة النتائج

.كان أيوب الأول في جميع الاختبارات. وحين نطقوا اسمه، ارتفع فوق رأسه نجم أبيض أضاء القاعة بأكملها.

انتظر أن يطلبوا منه الجلوس على كرسي أمين الفجر.



لكن أعضاء اللجنة ظلوا صامتين.

وفجأة، تحرك جزء صغير من الجدار خلفهم، وظهر الباب الذي رآه أيوب خارج القصر. انفتح، ودخل منه الشاب ذو المعطف الأخضر، وهو يتثاءب وطائره ما يزال نائما فوق كتفه.

تقدم نحو اللجنة وسأل:

- هل بدأ الامتحان؟

وقف أعضاء اللجنة دفعة واحدة، وانحنوا له.

قال كبيرهم:

- لقد انتهى في الوقت المناسب يا سيدي.

اتجه الشاب إلى الكرسي الذهبي، وما إن جلس عليه حتى نمت من جوانبه أغصان ذهبية التفت حوله، وظهر فوق رأسه تاج من المفاتيح.

احتج أحد المترشحين، فخرجت من الأرض ممحاة ضخمة ومسحت اسمه من قائمة الحاضرين.

تقدم أيوب ووضع مفتاحه المضيء فوق طاولة اللجنة.

- لقد اجتزت كل الاختبارات، وكنت الأول.

نظر كبير اللجنة إلى المفتاح، ثم إلى الشاب الجالس على الكرسي.



- هذا صحيح.

- ومن يكون هو؟

- إنه نائل بن مفتاحان، حفيد حارس البوابة الشرقية، وابن أخت رئيس مجلس الأقفال، وسليل أسرة تولت فتح الفجر منذ سبعة أجيال.

- لكنه لم يجتز أي امتحان.

أجابه كبير اللجنة بهدوء:

- لأن الامتحانات وضعت لمن يدخلون من الباب الكبير.

ثم رفع مفتاح أيوب بين إصبعين، وأضاف:

- أنت تعرف كيف تفتح البوابة، أما هو... فالبوابة تعرف عائلته.

عندها فهم أيوب ما قصده أبوه منذ سنوات.

لم تكن الاختبارات لاختيار أمين الفجر، بل لإقناع الواقفين في الخارج بأنهم يملكون فرصة.

فتح كبير اللجنة صندوقا أسود، ووضع داخله مفتاح أيوب. وما إن أغلقه حتى انطفأ ضوء المفتاح.

خرج أيوب من القصر بلا صندوق، وبلا سنوات، وبلا مفتاح.

وفي صباح اليوم التالي، تولى نائل منصبه.



لكنه لم يكن يعرف الفرق بين مفتاح الفجر ومفتاح الغروب. أدخل المفتاح الخطأ في بوابة الشرق، فخرج الليل في منتصف النهار. وفي اليوم الثاني، فتح البوابة قبل موعدها، فسقطت الشمس داخل ساحة القصر وأحرقت ثلاث حدائق.

وفي اليوم الثالث، وجه ضوءها كله نحو قصور أقاربه، فكانت شرفاتهم تستيقظ دافئة ومضيئة، بينما بقيت أحياء صانعي المفاتيح غارقة في الظلام.

ومع ذلك، خرجت أبواق القصر تعلن أن أمين الفجر الجديد حقق نجاحا لم تعرفه المدينة من قبل.

وعلقت صوره على السحب، وكتب تحتها:

«حين تلتقي الكفاءة بالإرث.»

عاد أيوب إلى دكان أبيه، فوضع أمامه المفتاح الأسود القديم.

قال الأب:

- الآن عرفت لماذا ذاب مفتاحي.

لكن أيوب لم يجب.

كان ينظر إلى الجدران.

فمنذ عودته، صار يسمع خلفها أصوات أقدام وهمسات وأبواب تفتح وتغلق. وضع أذنه على الحائط، فاكتشف أن خلف المدينة مدينة أخرى كاملة؛ ممرات ضيقة تمتد داخل الجدران، تصل القصور بالمدارس والمستشفيات ومخازن الضوء.

وفي تلك الممرات كانت الأبواب الصغيرة تنقل أبناء أصحاب الأختام من كرسي إلى كرسي، من دون أن يراهم الواقفون في الخارج.

قرر أيوب دخولها.

في منتصف الليل، طرق مفتاح أبيه الأسود بمفتاحه المطفأ، فتطاير منهما شرر شق الجدار. تسلل عبر الشق، فوجد نفسه في شبكة هائلة من الممرات الذهبية.

رأى أطفالا يختارون المناصب التي سيشغلونها عندما يكبرون. كان أحدهم يركب فوق كرسي قاض خشبي، وآخر يلعب بمفتاح مستشفى، وثالث يجر خلفه برجا صغيرا سيصبح مديرا له يوما.

وفي نهاية الممر وصل أيوب إلى قاعة مستديرة، تتوسطها شجرة سوداء ضخمة. لم تكن تحمل أوراقا أو ثمارا، بل أسماء محفورة على ألواح من الذهب. وكانت جذورها تمتد تحت أبواب المدينة كلها.

كلما ولد طفل في إحدى العائلات النافذة، نبت غصن جديد في الشجرة، وظهر في مكان ما باب صغير ينتظره.

أما مفاتيح المجتهدين، فكانت معلقة حول جذعها. تمتص الشجرة نورها، ثم ترسله عبر أغصانها إلى الجالسين على الكراسي.

أدرك أيوب أن نائل لم يكن يفتح بوابة الفجر بعلمه، بل بالنور المسروق من مفاتيح الذين اجتازوا الاختبارات.

انتزع مفتاحه من أحد الجذور، فعاد إليه الضوء. ثم حرر مفتاح أبيه، ومئات المفاتيح الأخرى. وما إن لامست الأرض حتى بدأت تزحف في الممرات مثل أسراب الخنافس المضيئة، تبحث عن أصحابها.

في الصباح، استيقظ أهل المدينة فوجد كل واحد منهم مفتاحه القديم أمام بابه.

خرج أيوب إلى ساحة القصر، وحكى لهم ما رآه. لكن بعضهم لم يصدقه، وبعضهم صدقه وخاف، وبعضهم قال في سره إن المشكلة ليست في الباب الصغير، بل في أنه لا يعرف الطريق إليه.

فقد كان كل مظلوم يكره الباب السري، لكنه كان يحلم، في أعماقه، أن يهمس باسمه يوما أمامه.

عندها قال أيوب:

- سيظل الباب الصغير قائما ما دمنا نحلم بالدخول منه فرادى.

ثم وضع مفتاحه في أحد مفاصل الباب الكبير.

فعل أبوه الشيء نفسه، ثم تقدم أصحاب المفاتيح المكسورة والمطفأة. وضع كل واحد منهم مفتاحه داخل مفصل من مفاصل القصر.

امتلأ الباب بآلاف المفاتيح.

ولأول مرة، لم يحاول الناس فتحه.



أداروا مفاتيحهم في اتجاه واحد، فبدأت المسامير العملاقة تخرج من الجدار. اهتز الباب، وصرخ الحراس، وتساقطت أقنعتهم النحاسية. ثم انفصل الباب الكبير عن مكانه وسقط في الساحة، فاهتزت المدينة كلها.

وخلفه ظهرت متاهة طويلة صنعتها لجان القصر لإرهاق الداخلين.

بعدها اتجه الناس إلى الجدار الخلفي. وضعوا مفاتيحهم حول الباب الصغير، فكبر واتسع حتى صار بحجم القصر، وانكشف الممر الذهبي القصير الذي كان يصل مباشرة إلى الكراسي.

رأى الجميع الحقيقة في لحظة واحدة:

كان البابان يؤديان إلى القاعة نفسها، لكن أحد الطريقين كان يسرق العمر، والآخر يختصره باسم.

تصدعت الجدران، وظهرت الشجرة السوداء أمام الشمس. وما إن لامسها الضوء حتى أخذت أسماؤها الذهبية تتساقط، وتحولت أغصانها إلى دخان.

أما كرسي أمين الفجر، فلفظ نائل من بين أغصانه، لأنه لم يجد نور المفاتيح المسروقة ليبقيه جالسا.

في ذلك اليوم لم ينتظر أهل المدينة أمينا جديدا للفجر.

حملوا بوابة الشرق معا، وفتحوها، فدخلت الشمس من كل الجهات. ولأول مرة، وصل الضوء إلى البيوت من دون أن يسأل عن أسماء ساكنيها.



أصبحت مدينة الأبواب بعد ذلك مدينة بلا مداخل خلفية. وكلما ظهر باب صغير في جدار، كان الأطفال يرسمون حوله دائرة حمراء حتى يراه الجميع.

لكن أيوب ظل يحتفظ بمفتاحه.

فهو يعرف أن الأبواب السرية لا تموت تماما؛ إنها تنتظر فقط أن ينسى الناس وجودها، ثم تنبت من جديد في أكثر الجدران صمتا.

وكان يقول لمن يسأله عن سر احتفاظه بالمفتاح:

حين تكون للمدينة أبواب سرية، لا يصبح النجاح حقا للمجتهدين، بل إرثا يتناقله العارفون.

تمت

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا

المدينة التي تسير بالمقلوب

حين تصبح الفوضى مهارة ... يضيع الطريق بالجميع

Produced by
RH©

لم تكن المدينة التي تسير بالمقلوب بعيدة عن مدننا الأخرى، وإن كانت كل مدينة تزعم أنها الوحيدة التي تسير في الاتجاه الصحيح.

كانت مدينة واسعة، تتلوى شوارعها بين البيوت كأفاع سوداء، وترتفع جسورها فوق السطوح ثم تهبط فجأة أمام الأبواب. أما السيارات، فكانت مخلوقات معدنية تلتهم الوقود وتنفث الدخان، وتتنافس فيما بينها على إطلاق أعلى الأصوات.

في تلك المدينة، لم تكن القيادة وسيلة للوصول، بل امتحانا يوميا لإثبات الشجاعة.

كان السائق الماهر هو من يعبر الإشارة الحمراء من دون أن يرف له جفن، ويدخل الطريق من الجهة المعاكسة، ويتجاوز السيارات عند المنعطفات، ويستعمل الرصيف كلما ضاق به الشارع. أما الذي يخفف سرعته أو يترك الطريق لغيره، فكان الناس ينظرون إليه بحزن ويقولون:

- مسكين... ما زال لا يعرف السياقة.

وكانت مدارس القيادة منتشرة في كل حي. فوق أبوابها لافتات ضخمة تقول:

«نعلمك كيف تصل أولا... ولو لم يصل الآخرون.»

يدخل المتدرب صباحا، فيتعلم في الحصة الأولى كيف يضغط على المنبه قبل أن يفكر، وفي الثانية كيف يمر من بين سيارتين لا تتسعان لظله، وفي الثالثة كيف يلوم الراجل إذا كاد يدهسه.

أما الحصة الأخيرة، فكانت تسمى «فن الاتجاه المعاكس». لا ينجح فيها المتدرب إلا إذا قطع شارعا كاملا في الجهة الخطأ، وأجبر القادمين نحوه على الصعود إلى الرصيف.

وكانت المدينة تمنح أفضل سائقيها وساما على شكل مقود مكسور، وتضع أسماءهم على لوحة الشرف في الساحة الكبرى. وكلما كثرت مخالفات السائق، ارتفعت مكانته بين الناس.

ولم تكن المخالفات تسمى مخالفات، بل «علامات خبرة».

عشر علامات تعني أنك سائق جيد.

خمسون علامة تعني أنك محترف.

أما من جمع مئة علامة، فيمنح لقب «سيد الطريق»، ويحق له أن يسير حيث يشاء، حتى لو لم يكن هناك طريق.

في تلك المدينة ولد شاب اسمه سائر.

منذ طفولته، كان يسأل أسئلة تزعج الكبار.

حين كان في السابعة، وقف أمام خط أبيض مرسوم وسط الشارع وسأل والده:

- لماذا رسموا هذا الخط؟

نظر الأب يمينا ويسارا، ثم همس:

- يقولون إنه يفصل بين الاتجاهين.

اتسعت عينا سائر:

- وأين الاتجاهان؟

ضحك الأب وقال:

- كانا هنا قديما، قبل أن يكتشف الناس أن الطريق كله ملك لمن يملك السيارة الأسرع.

وفي التاسعة، رأى إشارة حمراء مغطاة بالغبار، فسأل أحد السائقين:

- لماذا لا تتوقفون عندما تضيء؟

أجابه الرجل وهو يضغط على المنبه:

- الإشارة الحمراء وضعت للسائقين البطيئين. أما نحن فنعبر قبل أن تنتبه إلينا.

ثم انطلق مسرعا، فتناثرت خلفه حمامات الرصيف.

كبر سائر، وكبرت معه أسئلته.

وحين بلغ السن التي يسمح فيها بدخول مدرسة القيادة، سجله والده في أشهر مدرسة بالمدينة: «المعهد العالي للانحراف».

كان مبنى المعهد على شكل سيارة مقلوبة، وكان مديره يضع حول عنقه سلسلة من المفاتيح المسروقة من سيارات هزمها في الطريق.

في اليوم الأول، قال المدرب للطلاب:

- الطريق معركة. إذا احترمتم الآخرين، سبقوكم. وإذا تركتم لهم المسافة، أخذوها. لا تنظروا إلى الإشارات، بل اجعلوا الإشارات تنظر إليكم.

رفع سائر يده وسأل:

- وإذا كان الجميع يريد أن يسبق الجميع، فمن سيصل؟

ساد الصمت.

حدق المدرب فيه طويلا، ثم كتب اسمه في دفتر أسود بعنوان: «المتدربون ضعاف الروح».

بدأ الامتحان بعد أسابيع.

كان على كل متدرب أن ينطلق بأقصى سرعة، ويعبر سوقا مزدحما، ثم يدخل شارعا من الاتجاه المعاكس ويصل إلى الساحة قبل أن تتوقف ساعة البرج عن السعال.

انطلق المتدربون كقطيع من الوحوش المعدنية. اصطدمت المرايا بالمرايا، وقفز الباعة بعيدا عن العجلات، وارتفعت الأبواق حتى ارتجفت نوافذ المدينة.

أما سائر، فتقدم ببطء.

وعندما وصل إلى ممر الراجلين، وجد امرأة عجوزا تحاول العبور. توقف وتركها تمر.

شهق الممتحن الجالس إلى جانبه وقال:

- ماذا تفعل؟

- أتركها تعبر.

- ولكنها لم تكن أسرع منك!

- ليست مطالبة بأن تكون أسرع مني.

أخرج الممتحن قلمه، ووضع أمام اسم سائر علامة حمراء.



وعند التقاطع التالي، أضاءت الإشارة الحمراء.

توقف سائر.

صرخ الممتحن:

- لماذا توقفت الآن؟

- لأن الإشارة حمراء.

نظر إليه الرجل كأنما سمع اعترافا بجريمة، ثم فتح الباب وقفز من السيارة وهو يصيح:

- أوقفوا الامتحان! هذا الشاب يشكل خطرا على سمعة المدينة!

رسب سائر، وعلقت المدرسة على ظهره لوحة صغيرة كتب عليها:

«يحترم القانون... يرجى الحذر منه.»

ضحك الناس حين رأوه.

كان الأطفال يركضون خلفه ويقلدون مشيته البطيئة، والسائقون يطلقون أبواقهم كلما مر بجانبهم. حتى أصدقاؤه قالوا له:

- إذا ظللت تفكر بهذه الطريقة، فلن تصبح سائقا أبدا.

لكن سائر لم يتوقف عن التفكير.



في تلك الليلة، خرج يمشي في الشوارع الخالية. كانت السيارات نائمة على الأرصفة، وتتصاعد من محركاتها أنفاس ساخنة. وصل إلى التقاطع القديم حيث توقف في الامتحان.

كانت الإشارة الحمراء ما تزال مضاءة.

اقترب منها، فسمع صوتا ضعيفا يأتي من داخلها:

- شكرا.

تراجع سائر مذعورا.

قال:

- من يتكلم؟

أجاب الضوء الأحمر:

- أنا. لم يتوقف أمامي أحد منذ سبعة وعشرين عاما. ظننت أنني أصبحت مجرد مصباح للزينة.

ثم أضاء الضوء الأخضر وقال بصوت متعب:

- في الماضي، كنا ثلاثة أضواء نتقاسم الطريق. الأحمر يوقف، والأخضر يسمح، والأصفر يحذر. لكن الناس قرروا أن التحذير إهانة، والتوقف ضعف، والانتظار هزيمة.

سأل سائر:

- ولماذا لا تجبرونهم على احترامكم؟



ضحكت الإشارة حتى اهتز عمودها الصدئ.

- الإشارات لا تحرك السيارات. نحن فقط نذكر السائق بأن الطريق ليس ملكه وحده. إذا مات هذا المعنى داخله، فلن ينفعه ألف ضوء.

عاد سائر إلى بيته وهو يحمل تلك الكلمات.

وفي اليوم التالي، اشترى علبة طلاء أبيض وخرج قبل الفجر. رسم خطا طويلا يقسم شارع حيه إلى جهتين، ورسم أسهما تشير إلى اتجاه السير. ثم وضع قرب ممر الراجلين لافتة كتب عليها:

«لن تصل أسرع إذا منعت غيرك من الوصول.»

عندما استيقظت المدينة، تجمع الناس حول الخط.

قال أحدهم:

- إنه يضيق حريتنا!

وقال آخر:

- يريد أن يخبرنا من أين نسير!

وقال سائق يحمل وسام المقود المكسور:

- اليوم يرسم خطا، وغدا سيطلب منا أن نتوقف عند الإشارة!

وقبل الظهر، كانت عجلات السيارات قد محت الأسهم، واقتلع أحدهم اللافتة واستعملها جسرا لسيارته فوق الرصيف.

لكن سائر رسم الخط من جديد في الليلة التالية.

وفي كل صباح كانوا يمحونه.

وفي كل ليلة كان يعيده.

انتشر خبره حتى وصل إلى مجلس المدينة. فاستدعاه رئيس المجلس، وكان رجلا ضخما يجلس فوق كرسي مصنوع من لوحات ممنوع المرور.

قال له الرئيس:

- بلغنا أنك تقسم الشوارع من دون ترخيص.

- أنا لا أقسمها، بل أنظمها.

- الطريق لا يحتاج إلى تنظيم. الطريق يحتاج إلى سائق قوي.

- وإذا جاء سائقان قويان من اتجاهين متعاكسين؟

ابتسم الرئيس وقال:

- يبقى الأقوى منهما.

سأله سائر:

- وماذا يبقى من الطريق؟

اختفت الابتسامة عن وجه الرئيس.

أمره ألا يرسم أي خط آخر، ثم أعلن أمام الناس أن سائر شاب يكره الحرية، ويريد تحويل السائقين الشجعان إلى قطيع ينتظر أمام الأضواء.

وبعد أيام، استعدت المدينة للاحتفال بأكبر أعيادها: «يوم التجاوز العظيم «.

في ذلك اليوم، تنطلق جميع السيارات في اللحظة نفسها نحو الساحة الكبرى. لا توجد مسارات، ولا إشارات، ولا أولوية. والفائز هو أول من يصل إلى تمثال «السائق الذي لم يتوقف قط«.

منذ الصباح، تزينت السيارات بالأبواق والأعلام. وضع السائقون على نوافذهم صور مخالفاتهم، وتفاخر كل واحد بعدد المرات التي نجا فيها من حادث.

عند الظهيرة، أعطى رئيس المجلس الإشارة.

انطلقت آلاف السيارات دفعة واحدة.

جاءت من الأزقة والجسور والأنفاق والأسواق. دخلت الشوارع من الاتجاهين، وصعدت فوق الأرصفة، ومرت بين البيوت. ارتفعت أصوات المحركات حتى بدا كأن المدينة كلها تحولت إلى وحش معدني هائل.



لكن شوارع المدينة كانت قد تعبت.

تعبت من العجلات التي تدخلها من كل جهة، ومن الأبواق التي لا تصمت، ومن السائقين الذين يعاملونها كأنها ملك شخصي.

وفجأة، تحرك الإسفلت.

ارتفع أحد الشوارع عن الأرض والتف حول نفسه. وانحنى جسر طويل حتى صار كذيل عقرب. أما الدوار الكبير، فبدأ يدور بسرعة، ثم انفصل عن مكانه وأخذ يجمع الطرق حوله.

تشابكت الشوارع فوق المدينة حتى تحولت إلى عقدة سوداء هائلة.

وجدت السيارات نفسها معلقة بين الأرض والسماء. سيارة تصعد طريقا لا نهاية له، وأخرى تدور حول المبنى نفسه، وثالثة تدخل نفقا فتخرج منه إلى المكان الذي دخلت منه.

ضغط السائقون على أبواقهم أكثر.

فازدادت العقدة إحكاما.

حاول كل واحد أن يمر أولا، فلم يتحرك أحد.

وفي أعلى أحد الطرق الملتوية، توقفت حافلة صغيرة تحمل أطفالا كانوا في طريقهم إلى أول درس في القيادة بالمقلوب. بدأت الحافلة تنزلق نحو الحافة، بينما وقف الجميع عاجزين.

وصل سائر إلى المكان سيرا على قدميه.

سمع الناس يصيحون:

- افتحوا لنا الطريق!

- أنا كنت هنا أولا!

- ليعد الجميع إلى الخلف إلا أنا!

فهم سائر أن المدينة لا تزال تحاول الخروج من الفوضى بالطريقة نفسها التي صنعت بها الفوضى.

توجه إلى الإشارة القديمة، وانتزعها برفق من عمودها الصدئ، وحملها بين يديه. ثم صعد نحو عقدة الطرق.

أضاء الضوء الأحمر.

قال سائر:

- على الجميع أن يتوقف.

ضحك بعض السائقين رغم خوفهم.

- نتوقف؟ الآن؟

أجاب:

- نعم. لأن كل حركة عشوائية تشد العقدة أكثر.

رفضوا في البداية، لكن الطريق اهتز، وانزلقت حافلة الأطفال قليلا. عندها أطفأ أول سائق محركه. ثم أطفأ الثاني. وبعد لحظات، ساد صمت لم تعرفه المدينة منذ سنوات.

توقفت الأبواق.

سمع الناس للمرة الأولى أصوات أنفاسهم.

أضاء الضوء الأخضر.

طلب سائر من سيارة واحدة أن تتراجع ببطء. فعلت، فانفك جزء صغير من الطريق.

ثم طلب من السيارات القادمة من الجهة الأخرى أن تنتظر. وبعدها سمح لسيارتين بالمرور، ثم أوقفهما وفتح الطريق لغيرهما.

مع كل سيارة تحترم دورها، كانت عقدة الإسفلت ترتخي.

ومع كل سائق ينتظر، كان شارع يعود إلى مكانه.

وحين وصل سائر إلى حافلة الأطفال، رسم أمامها سهما أبيض طويلا. تحركت الحافلة فوقه، فاستقام الطريق تحت عجلاتها كأنه يستيقظ من كابوس.

ظل سائر ساعات ينظم الحركة، حتى هبطت الجسور، وعادت الأنفاق إلى أماكنها، واستقرت الشوارع فوق الأرض.



نجت المدينة.

في المساء، اجتمع مجلسها ليقرر كيف سيكافئ سائر.

عرضوا عليه وسام المقود الذهبي، ولقب «أعظم سائق في تاريخ المدينة»، واقترحوا أن يضعوا تمثاله إلى جانب تمثال السائق الذي لم يتوقف قط.

رفض سائر.

قال رئيس المجلس:

- ماذا تريد إذن؟

أشار سائر إلى الشوارع وقال:

- أريد أن تصبح القاعدة التي أنقذتكم اليوم قاعدة لكل يوم.

تبادل أعضاء المجلس النظرات.

قال أحدهم:

- لكن الخطر انتهى.

وأضاف آخر:

- لا يمكن أن نعيش كل يوم كما لو كانت هناك كارثة.

أجاب سائر:

- الكارثة لم تبدأ حين التوت الشوارع. بدأت يوم صدقتم أن احترام الآخرين ضعف، وأن السرعة شجاعة، وأن مخالفة القانون دليل مهارة.

قال الرئيس:

- إذا التزم الجميع بالنظام، فكيف سنعرف السائق الأفضل؟

أجابه سائر:

- السائق الأفضل ليس من يجعل الآخرين يخافون منه، بل من يصل من دون أن يحول الطريق إلى خوف.

لم يقتنع المجلس، لكنه لم يستطع منعه هذه المرة.

افتتح سائر مدرسة صغيرة داخل مبنى الإشارة القديمة. لم يكن فوق بابها إعلان ضخم، بل جملة بسيطة:

«الطريق وعد بين العابرين».

في البداية، لم يلتحق بها سوى سبعة أطفال وامرأة عجوز وسائق فقد منبهه. وكان الناس يسمونها «مدرسة الضعفاء».

علمهم سائر أن الضوء الأحمر ليس عدوا، وأن ممر الراجلين ليس زينة، وأن الطريق لا يصبح أقصر بالصراخ. وعلمهم أن ترك مسافة للآخر لا يعني التراجع، بل يعني أن الجميع يملكون مكانا في الحياة.

ومع مرور الأيام، حدث أمر غريب.

الشوارع التي يسير فيها طلاب سائر لم تعد تلتوي.

السيارات تصل إلى وجهاتها من دون أن تفقد مراياها. الحافلات لم تعد تتأخر بسبب الطرق المسدودة. والناس صاروا يعبرون الشارع من دون أن يودعوا عائلاتهم أولا.

بدأ بعض السائقين يسألون في خجل:

- هل يمكننا أن نتعلم الضعف؟

فيجيبهم سائر:

- هذا ليس ضعفا. الضعف الحقيقي أن تحتاج إلى تعريض حياة الآخرين للخطر حتى تشعر أنك قوي.

كبرت المدرسة، وعادت الخطوط البيضاء إلى الشوارع. أزيل الغبار عن الإشارات، وخرج كتاب قانون السير من المتحف بعد أن كسر القفل الذي كان يقيده.

لكن المدينة لم تتغير كلها.

ظل بعض السائقين يدخلون من الاتجاه المعاكس، ويصرخون في وجه من ينبههم، ويتباهون بأنهم لا يخافون القانون. وكانوا كلما رأوا سائر يمر بهدوء، يضحكون ويصفونه بالسائق الضعيف.

غير أن سائر لم يعد يغضب.



كان ينظر إليهم وهم يسرعون نحو اختناق جديد، ثم ينظر إلى طلابه وهم يصلون بسلام، ويقول:

- لا بأس... فالطريق، مهما طال، يعلم من لا يريد أن يتعلم.

ويقال إن تلك المدينة ما تزال موجودة.

تظهر في كل مكان يظن فيه السائق أن السيارة تمنحه حقا أكبر من حقوق الآخرين، وأن الشجاعة هي ألا يتوقف، وأن القانون كتب للضعفاء فقط.

أما سائر، فما يزال يرسم خطه الأبيض كل ليلة.

ليس ليقسم الطريق إلى نصفين، بل ليذكر المدينة بأن المشكلة لم تكن يوما في اتجاه الشوارع...

بل في العقول التي قلبت معنى القوة، ثم أقنعت الجميع بأنها تسير على الطريق الصحيح.

تمت

ليست هذه المدن بعيدة كما نظن...

فكل مدينة تبدأ بالتغير حين يرفض أحدهم
أن يسير في الاتجاه الخطأ.

تمت حكايات تشبهنا

رضا الحكيم الشعيري

حكايات تشبهنا

هناك مدن لا تظهر على الخرائط، ومع ذلك نعرفها جيدًا...

مدنٌ تقف فيها الساعات، وتكبر فيها الطوابير، وتميل الموازين، وتلتهم الغرف رواتب ساكنيها. مدنٌ تُعلَّق فيها الشهادات على جدران المقاهي، وتُباع الجسور قبل أن تُبنى، وتُفتح أبوابها للأسماء قبل الكفاءات، ويصبح احترام القانون فيها علامة على ضعف صاحبه.

في اثنتي عشرة حكاية خيالية مشبعة بالسخرية والمرارة والأمل، يأخذنا رضا الحكيم الشعيري إلى عوالم تبدو غريبة في تفاصيلها، لكنها قريبة من واقعنا إلى حدٍّ مقلق. شخصياتها بسيطة، وأحلامها صغيرة، غير أن كل واحدة منها تجرؤ على طرح السؤال الذي تحاول المدينة إسكاته:

لماذا اعتدنا الخطأ حتى أصبح الصواب غريبًا؟

«حكايات تشبهنا» ليست حكايات عن مدن بعيدة، بل مرآة أدبية لواقع نعيشه، ونضحك منه أحيانًا كي لا نبكي، ونسكت عنه أحيانًا حتى نظن أنه لن يتغير.

لكن المدن لا تبدأ بالتغير حين يتكلم الجميع...

بل حين يرفض شخص واحد أن يسير في الاتجاه الخطأ.

«حين يصبح الواقع أغرب من الخيال، لا يبقى أمام الحكاية إلا أن تقول الحقيقة بطريقتها.»

رضا الحكيم الشعيري